أعلام مؤرخي العرب والإسلام

العماد الأصفهاني

حياته وعصره

٥١٩ - ٥٩٧ هـ / ١١٢٥ - ١٢٠١ م.



إعداد

الدكتور حسين عاصي

أستاذ في الجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

أعلام مؤرخي العرب والإسلام

العماد الأصفهاني

حياته وعصره

٥١٩ - ٥٩٧هـ / ١١٢٥ - ١٢٠١م.

إعداد

الدكتور حسين عاصي

أستاذ في الجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

تصدير

تتفرد المدرسة الشامية في التأليف التاريخي، التي ينتمي إليها العماد الأصفهاني، بميزة تختص بها وتتمثل في تعدد كتب الفضائل قائمة المؤلفات التاريخية. خاصة فضائل المدن وتحديداً دمشق والقدس ومكة والمدينة والخليل وعسقلان. وكذلك فضائل الجهاد والقائمين عليه. ويجد هذا الميل تفسيره في الوجود الصليبي العدواني في بلاد الشام.

لقد ظهرت كتب الفضائل في بلاد الشام لتدافع عن الوجود الإسلامي فيهابإضفاء هالة من القداسة عليها لعل ذلك يرد العدوان عنها، وهذه الكتب بالنسبة إلى القدس أقدم من سواها لقدم قدسيتها في النفوس. ثم لما جاء العدوان الصليبي كبر على المسلمين ضياع القدس من بين أيديهم وأصبح من أهداف المقاومة والجهاد إبراز قدسية هذا البلد ومكانته وفضله في مؤلفات متداولة. وبالمقارنة فإن دمشق التي قاومت الصليبيين وهزمتهم عند أسوارها في الحملة الثانية ثم أصبحت مركزاً لنور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي اللذين تزعما حركة الجهاد الإسلامي بعد أن تخلت دولتا الخلافة في بغداد والقاهرة عن دوريهما في هذا الخصوص، الأمر الذي أبرز الدور الضخم الذي توجب على مدن

الشام أن تضطلع به هذا التحدي الصليبي العنيف في تلك الأوقات، فأصبحت مركز الاستقطاب السياسي والاقتصادي والفكري في العالم الإسلامي، تشعر بأرتباط العالم الإسلامي بها وآرتباطها به من خلال تلك الحروب ومن خلال اتصالها بالماضي الإسلامي كله في الوقت الذي تدافع فيه عن حاضره. وأصبحت سيرة الأبطال كصلاح الدين تجذب العلماء والمؤرخين، كما أضحت دولته التي تجمع بين الشام ومصر تمثل بالنسبة للمسلمين نوعاً من اليقظة الإسلامية الشاملة وأملاً في عودة المجد الإسلامي التليد.

ومن جميع الوجوه يمكن اعتبار صلاح الدين أعظم الأبطال الذين حاربوا الصليبيين كما أن تفوقه ونبله كرجل وكبطل، سواء أكان ذلك في الحرب أم في السلم أمر يشهد له به الأصدقاء والأعداء. لقد عفّى النسيان ذكرى عدد كبير من أبطال المسلمين ولكن الزمن والبحث التاريخي ما زالا يضفيان على بطل حطين شرفاً على شرف ونبلاً على نبل. لقد أثار نصر حطين وسقوط بيت المقدس في قبضته نفوس الشعراء وحرك أقلام الكتاب فجرت تشيد بآنتصاراته المبينة وتذكر آلاء الله تعالى على المحاربين والمجاهدين. وممن اتخذ سنة عودة القدس أساساً لمؤلفه عن عهد صلاح الدين، العماد الأصفهاني موضوع هذا الكتاب.

الفصل الأول

العماد الاصفهاني: سيرة حياته ومؤلفاته

١ ـ مولده ونشأته:

هو أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد بن نفيس الدين أبي الرجاء حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمد بن هبة الله بن أُلُـهْ[١] الملقب بعماد الدين الكاتب الأصفهاني والمعروف بابن أخي العزيز[٢] ولد بأصبهان يوم الاثنين

---

(١) ألُهْ بفتح الهمزة وضم اللام وسكون الهاء، هو اسم أعجمي بمعنى العقاب.

ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/١٥٢.

(٢) هو أبو نصر أحمد بن حامد بن عبد الله الأصفهاني الملقب عز الدين المستوفي، عم العماد الكاتب الأصفهاني ولي المناصب العالية في الدولة السلجوقية، وقصده ذوو الحاجات ومدحه الشعراء. وكان ابن أخيه العزيز يفتخر به كثيراً وقد ذكره في أكثر تآليفه. ولد بأصفهان سنة ٤٧٢هـ وكان مقتله بتكريت سنة ٥٢٦هـ بسعاية من الوزير أبو القاسم ناصر بن علي الدركزيني.

العماد الأصفهاني: زبدة النصرة ١٤٨ ـ ١٧٠ ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/١٨٨ ـ ١٨٩.

ثاني جمادى الأخرة سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥م[١] وهو فارسي المحتد، كما يعترف بنفسه[٢] وأمضى أيام طفولته بأصفهان إلى أواخر سنة ٥٣٢هـ. وبعد رفع حصار أصفهان في السنة المذكورة ذهب مع أبيه وأخيه الصغير أبي بكر حامد إلى قاشان وسلمهما أبوهما إلى صديق له، وذهب مع السلطان داود إلى الريّ[٣]، فتردد العماد مع أخيه إلى المدرسة المجدية وتعلّم القرآن والأدب. ثم عاد بعد سنة مع أبيه وأخيه إلى أصفهان في أوائل سنة ٥٣٤هـ[٤] وقال في الخريدة:

«حصّلنا إبانه عند النكبة بقاشان عند مقاساة الشدائد ومعاناة معاندة الأقارب والأباعد سنة ثلاث وثلاثين، وأنا في حجر الصغر بعيد عن الوطن والوطر، وأخي معي، وهو أصغر مني. وقد سلمنا والدنا إلى صاحب له من أهل قاشان. وأقمنا سنة نتردد إلى المدرسة

---

(١) نجد ترجمة للعماد، بالإضافة إلى ما أورده في كتبه عن أخباره وأحواله في:
- ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/١٤٧ - ١٥٢ ياقوت: إرشاد الأريب ٧/٨١ - ٩٠.
الصفدي: الوافي بالوفيات ١/١٣٢ - ١٤٠ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٤/٣٣٢.
السبكي: طبقات الشافعية ٤/٩٧ أبو شامة: الروضتين ١/١٤٤.
بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٦/٥ - ٦.

(٢) قوام الدين البنداري: سنا البرق الشامي «مقدمة» ص٧ حاشية٢.

(٣) قصبة بلاد الجبال، مدينة مشهورة توجد أطلالها على بعد ثمانية كيلومترات جنوب شرق طهران.
- ليسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٣٤٩ - ٣٥١.

(٤) العماد الأصفهاني: زبدة النصرة ص١٨١.

المجدية إلى المكتب. ثم عدنا إلى أصفهان...»[١].

ولم تطل إقامة العماد في أصفهان بعد عودته إليها، بل عاد إلى بغداد مع أسرته في السنة المذكورة إلى بغداد وكان في الخامسة عشرة من عمره كما يقول هو.

«ولما نقلني والدي من أصفهان إلى بغداد حين نبا بعد النكبة بنا الوطن وضاق العطن، ولم نجد الأمن والسلامة واليمن والكرامة إلاّ في ظلّ الدار العزيزة، النبوية المقتفوية، فسكنا مدينة السلام وآتخذناها دار المقام وذلك في سنة أربع وثلاثين وخمسمائة وقد بلغت سني خمس عشرة سنة»[٢]. وفي بغداد انتظم في سلك المدرسة النظامية[٣] زماناً وسمع الحديث وأتقن الخلاف وفنون الأدب[٤] كما تفقّه على المذهب الشافعي على الشيخ أبي

---

(١) البنداري: سنا البرق. المقدمة ص٨ نقلاً من الزبدة قسم العجم ١٥١أ.

(٢) العماد الأصفهاني: الخريدة قسم العراق ٢/٥٣ ـ ٥٤.

(٣) المدرسة النظامية نسبة إلى منشئها الوزير الفارسي نظام الملك الطوسي وزير السلطان ملكشاه السلجوقي (٤٥٧هـ). يجمع المؤرخون على اعتبارها أسبق المدارس إلى الظهور في الإسلام كمدرسة منظمة بالمجان. لهذا سميت معاهد العلم التي تلتها بالمدارس. تخرج منها من رجال العلم من ذاع صيتهم في الأفاق وساعدوا على تطور الحركة المدرسية في الدول الإسلامية. من أوائل أساتذتها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي والإمام أبو نصر الصباغ وأبو حامد الغزالي والسهروردي.
ـ جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ٣/٣٢٢، ٣٢٥.

(٤) لشيوخه انظر:
ـ العماد الأصفهاني: خريدة القصر قسم العراق ٢/٥٣ ـ ٥٤.

منصور سعيد بن محمد بن الرزاز مدرس النظامية، وسمع بها الحديث من أبي الحسن علي بن هبة الله بن عبد السلام وأبي منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون وأبي المكارم المبارك بن علي السمرقندي. وأبي بكر أحمد بن علي بن الأشقر وغيرهم. كما أجاز له أبو عبد الله الفراوي وأبو القاسم بن الحصين.

وبعد أن أقام العماد في بغداد تسع سنوات، أي إلى سنة ٥٤٣هـ، زار الموصل في ذي القعدة من هذه السنة فأكرمه هناك الوزير جمال الدين الجواد(١) وعظّم منزلته بسبب عمه العزيز. ثم رجع إلى بغداد بعد إقامة قصيرة ليداوم على طلب العلم.

وتعرّف العماد في أوائل سنة ٥٤٣هـ على جمال الدين محمد بن عبد اللطيف الخجندي المتوفى سنة ٥٥٣هـ حين رجوعه من الحج ببغداد. وعاد مع ابنه بحضرته إلى أصفهان في السنة المذكورة(٢). قال في الخريدة:

ودخلت أصفهان في سنة ثلاث وأربعين في زي العلماء وحضرت المحافل في مناظرة الفضلاء ومناظرة الكبراء. ولقيت بها

(١) هو جمال الدين أبو جعفر محمد بن علي الأصفهاني وزير صاحب الموصل أتابك زنكي، كان رئيساً نبيلاً دمث الأخلاق، كريماً مفضالاً، وزر أيضاً لولد زنكي، سيف الدين غازي، ثم لأخيه قطب الدين مدة إلى أن قبض عليه سنة (٥٥٨ هـ - ١١٦٣ م) ومات في العام التالي في سجنه.
- العماد الأصفهاني: زبدة النصرة ٢١٣ وكذلك في الخريدة قسم الشام ٢٤٩/٢ - ٢٥١.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٤٣/٥ - ١٤٥.

(٢) العماد الأصفهاني: زبدة النصرة ص٢٢٢.

مشايخ أترعت حوض النحر من الفهم من بحرهم، وآستسقيت روض الفضل من قطرهم. . .»[١].

وأخذ وسمع هناك من العلماء والأدباء الشهيرين وجمع مواد الخريدة ونصرة الفطرة ونظم القصائد، وخلال هذه الفترة زار همذان سنة ٥٤٥هـ[٢]. وحجّ مع جمال الدين بن الخجندي سنة ٥٤٨هـ[٣] وعاد من الحج في أوائل سنة سنة ٥٤٩هـ، وزار بعده همذان مرة أخرى وأقام في معسكر جغري شاه[٤].

ثم عاد إلى أصفهان وخرج منها في أوائل شوال سنة ٥٤٩هـ إلى بغداد بنيّة الرجوع إلى أصفهان. ولكن الأقدار شاءت له أمراً. وقد دخل إلى بغداد في شهر ذي القعدة وأقام بها إلى سنة ٥٥٢هـ وأكمل دراسته وجمع مواد كتبه.

٢ ـ ولايته نيابة البصرة وواسط:

خلال إقامة العماد هذه في بغداد اتصل بالوزير عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة[٥] وزير الخليفة العباسي المقتفي فولّاه

(١) البنداري: سنا البرق الشامي «المقدمة» ص٩ حاشية٢.

(٢) البنداري: نفس المصدر والصفحة حاشية رقم٣.

(٣) العماد الأصفهاني: زبدة النصرة ص٢٤٣.

(٤) العماد الأصفهاني: زبدة النصرة ص٢٤٤ ـ ٢٤٥ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/٣٢٨.

(٥) هو أبو الحسن أمين الدولة هبة الله بن صاعد البغدادي، وبعد وزارته أصبح يعرف بأبي المظفر عون الدين يحيى بن هبيرة، وقد وضع له نسب خاص بعد وزارته. تفقه على مذهب ابن حنبل وسمع الحديث وقرأ القرآن بروايات المختلفة. وله كتب في الحديث والنحو واللغة والمنطق =

نيابة واسط سنة ٥٥٢هـ[١] قال العماد في ذلك:

«وأحضرني الوزير ابن هبيرة في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة عنده وسألني أن أتولى شغله فكرهت ذلك. لكنني لم أقدر على خلاف وزير الخلافة ونشبت معه في الأعمال السلطانية الكثيرة الآفة»[٢].

وقد بقي العماد مسرور العيش هانىء البال في حياة ابن هبيرة وفي ظل رعايته ولم يدر ما خبأه له الدهر من شدائد ومن غصات، فما إن وافت المنية ذلك الوزير في الثالث عشر من جمادى الأولى سنة ٥٦٠هـ حتى صدرت أوامر الخليفة بأعتقال جماعة من أصحابه، وكان العماد في جملة من أعتقل لأنه كان ينوب عنه في واسط تلك الفترة، فكتب من سجنه إلى عماد الدين بن

= والعبادات. وزر للمقتفي حتى وفاته سنة ٥٥٥هـ ثم للمستنجد حتى سنة ٥٦٠هـ.

- ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/٣٢٦ - ٣٣٣.

(١) النيابة هي القيام مقام السلطان في عامة أموره أو غالبها، والنائب في العرف العام يطلق على كل نائب عن السلطان أو غيره بحضرته أو خارجاً عنها في قرب أو بعد.

- القلقشندي: صبح الأعشى ٥/٤٥٣ - العماد الأصفهاني :نصرة الفطرة ٢٥٥ وكذلك

- الخريدة قسم العراق ١/٣٦، ٣٩.

(٢) ولي العماد بين سنوات ٥٥٢ - ٥٦٠. نيابة البصرة وواسط مرات.

- البنداري: سنا البرق ص٥٨.

عضد الدين بن رئيس الرؤساء وكان حينئذٍ أستاذ الدار[1] المستنجدية وذلك في شعبان سنة ٥٦٠هـ من قصيدة:

قل للإمام: علام حبس وليكم
أولو جميلكم جميل ولائه
أو ليس إذ حبس الغمام وليّه
خلّى أبوك سبيله لدعائه

وفي هذين البيتين إشارة إلى قضية العباس بن عبد المطلب، عم النبي مع عمر بن الخطاب، وكان الغيث قد آنقطع في زمن خلافته وأمحلت الأرض، فخرج للاستسقاء ومعه العباس والناس. فلما وقف للدعاء قال: اللهم إذا كنا قد قحطنا توسلنا إليك بنبيّنا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك اليوم بعم نبيّنا فآسقنا، فسقوا[2]. فأمر بإطلاق سراحه وتخلية سبيله وزاد في راتبه[3].

٣ ـ قدوم العماد إلى دمشق:

أقام العماد في بغداد فترة كان فيها منكد العيش، مسهد الجفن، فقد أصابه الذل بعد العز، والضيق بعد الفرج والسعة، فآنقطع إلى مجالسة الفقهاء ومناظرتهم وكان من بينهم فقيه دمشقي حدث العماد عن دمشق ووصف له حسنها وطيب رياضها ورياحينها

(١) أستاذ الدار أو الأستادار هو الذي يتولى شؤون مسكن السلطان أو الأمير وصرفه وتنفيذ أوامره.
ـ القلقشندي: صبح الأعشى ٢٠/٤.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٥١/٥.
(٣) العماد الأصفهاني: الخريدة قسم العراق ٥٦، ٦٠.

وأطنب في مدح سلطانها نور الدين زنكي وعدله. لذا عزم على أن يرحل إلى دمشق علّه يجد في كنف سلطانها الأمن والطمأنينة وسعة العيش ورغده، فشدّ الرحال إليها يرافقه ذلك الفقيه حتى شارف دمشق فٱنقطع عنه وكان ذلك في شعبان سنة ٥٦٢هـ. وفي ذلك يقول العماد:

«فلما توفي في سنة ستين أقمت ببغداد بعده، وكل من هو إليه منسوب مكبوت ومكبوب، وما طرقني بحمد الله آفة ولا عرتني مخافة وأنا إلى الفقهاء منقطع وبالمناظرة والمباحثة معهم منتفع. وفيهم فقيه من أهل دمشق يصف طيب رياضها وبهجة جواهرها وأعراضها وصحة هوائها وقلة أمراضها. فراقتني معرفته وشاقتني صفته. فقلت: أجعلُها سنة فُرجة وأسافر لإسفار صُبحي بسُرى دلجة، وأقصد إيناس قلبي وتنفيس كربي. ووافقني وما فارقني، حتى وصل إلى قرب دمشق فٱنقطع عني وساء بعد الإحسان به ظني. فلم أدرِ في أي مطار طار، وإلى أيِ مصير صار. فبقيت غريباً وحيداً ولقيت من استيحاشي هماً شديداً»[1].

وفي دمشق نمي خبره إلى بعض الصوفية، فدخل إلى قاضي دمشق آنئذٍ كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري[2] وقال له فلان ورد البلد، فأعان القاضي العماد وأنزله

---

(١) البنداري: سنا البرق الشامي ص٥٨.

(٢) أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبد الله الفقيه الشافعي، تولى قضاء الموصل أيام زنكي وقدم دمشق سنة ٥٥٠هـ وتولى قضاءها سنة ٥٥٥هـ. توفي سنة ٥٧٢هـ.

في المدرسة الشافعية النورية عند باب الفرج[1] وقد توثقت الصلة فيما بعد بينهما وأصبح القاضي يحضر مجالسه ويذاكره في مسائل الخلاف في الفروع[2].

وقد تحدث العماد عن حياته في دمشق في كتابه البرق الشامي فقال: إن الأمير نجم الدين أبو الشكر أيوب والد صلاح الدين عرف بوصوله إلى دمشق، فبعثه سابق معرفته بعمه العزيز مذ كان معتقلاً بتكريت ونجم الدين إذ ذاك واليها[3]، إلى التعرف عليه، فبكّر إلى منزله لتبجيله وأحسن إليه وأكرمه وميّزه عن الأعيان والأماثل، وآنتسجت المودة بينهم من هناك. وقد مدحه العماد بقصيدة منها[4]:

موفّق الرأي ماضي العزم مرتفع
على الأعاجم مجداً والأعاريب
أحبك الله إذ لازمت نجدته
على جبين بتاج الملك معصوب

---

(١) أنشأها نور الدين زنكي وكانت على مقربة من البيمارستان النوري داخل باب الفرج وقيل كانت بالكلاسية، عرفت فيما بعد باسم العمادية أيضاً نسبة للعماد الأصفهاني.
ـ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/٢٣١.
(٢) ياقوت: إرشاد الأريب ٧/٧٢.
(٣) عن الظروف التي جرت فيها هذه الحوادث انظر
ـ العماد الأصفهاني: زبدة النصرة ١٥٢ ـ ١٥٤ والبرق الشامي ٣/١٦٥أ.
ـ البنداري: سنا البرق الشامي ص٥٩.
(٤) أبو شامة الروضتين ١/٣٦٩.

أخــوك وابنـك صــدقـاً منهمــا اعتصما
بــالله، والـنصــر وعــد غيــر مكــذوب
غــداً يُشبّــان في الـكـفــار نــار وغى
بـلفحـهــا يصبـح الشـبــان كــالشيب
ويـسـتـقـر بـمـصـر يـوسـف وبـه
تـقـر بعـد التـنـائي عـين يـعـقـوب
ويـلتـقي يـوسـف فـيـهـا بـإخـوتـه
والله يـجـمـعـهـم مـن غـيـر تـثـريـب

وكان في ذلك إشارة إلى أسد الدين شيركوه وصلاح الدين اللذين كانا آنئذٍ بمصر للدفاع عنها ضد الصليبيين. ولما عادا من مصر، اتصلت بين صلاح الدين والعماد المودة وأخذ يستهديه نظمه ونثره، وكأنما شاءت الأقدار أن تمهد بهذه الصلة لما سيكون فيما بعد بين الاثنين من وشائج قوية(١).

٤ ـ ولاية العماد ديوان الإنشاء لنور الدين زنكي:

وآرتفع ذكر العماد في دمشق، فعوضه هذا عما فقده من عز أيام ابن هبيرة في بغداد وما لاقاه من عنت ومذلة بعد وفاته. ثم قدمه القاضي كمال الدين في أواخر السنة إلى نور الدين ونوّهه بشأنه فخدمه العماد بقصيدة. فرتّبه الملك العادل نور الدين في ديوانه منشئاً أوائل سنة ٥٦٣هـ(٢) وذلك بعد استعفاء أبي اليسر شاكر بن

(١) العماد الأصفهاني: الخريدة قسم شعراء الشام ص١٥.
(٢) البنداري: سنا البرق الشامي ص٦٦ ـ ٦٧ أبو شامة: الروضتين ١/٣٧٨.

عبد الله كاتب الإنشاء (المتوفى سنة ٥٨١هـ بدمشق) لـزنكي وابنه نور الدين[١] وقد تردد العمـاد في القبول بـادىء الأمر لأنه خاف التقصير في أمر لم يكن له اشتغال به من قبل. لكنه عاد ووافق على القيام بالمهمة الموكولة ونجح فيها وهانت له حين مارسها وأجادها إجادة لم تكن في الحسبان، وأتى فيها بالغريب الذي لفت إليـه الأنظار وأثار ذوي الحجا والأعلام، فبرز اسمه بين أسماء البارزين في هذه الصناعة وفي ذلك يقول:

«وكنت أظن أن صناعة الكتابة، لاسيما الإنشاء صعب حتى قرأت كتب الأمصار والمراسلات من سائر الأقطار فوجدتها في غاية من الركة ويا ليتها كانت بعبارات مغسولة. فتجرأت على الكتابـة وغيرت تلك الأوضاع الوضيعة وأخترعت أسلوباً ما عرفوه. وألّفت مصنوعاً مطبوعاً ما أَلِفـوه، ووفيت بالبـلاغتين، ونفيت الغش عن الصياغتين. وكتبت إلى الأعاجم بما سحرهم وبهرهم وإلى ملوك الشام ومصر بما أعجزهم وأعجبهم»[٢].

وقد أخلص العماد في خدمة نور الدين، كمـا يقول وكـان

---

(١) أبو اليسر شاكر بن عبد الله المتوفى سنة ٥٨١هـ بدمشق. كان كاتب الإنشاء لزنكي وابنه نور الدين وديوان الإنشاء هو الدائرة التي تحرر فيها الوثائق الرسمية والمكاتب الرسمية للسلطان ولهذا يقال لصاحبهـا كاتب السـر أيضاً.

ـ العماد الأصفهاني: الخريدة قسم شعراء الشام ٢/٣٥ ـ ٣٧ الروضتين ١/٣٧٨.

ـ القلقشندي: صبح الأعشى ٣/٤٩٠.

(٢) البنداري: سنا البرق الشامي ٦٧.

مواظباً على العمل فوثق به وأرسله رسولاً إلى شاه أرمن صاحب خلاط وهي عاصمة أرمينية الوسطى سنة ٥٦٥هـ وإلى الخليفة المستنجد العباسي سنة ٥٦٦هـ[١].

٥ ـ العماد يدرس في المدرسة النورية:

وفي رجب سنة ٥٦٧هـ فوّض نور الدين زنكي العماد التدريس في المدرسة التي بحضرة حمام القصير والنظر في أوقافها بعد وفاة شيخها أبو البركات خضر بن شبل بن عبد الحارث الدمشقي المعروف بآبن عبْد[٢]. يقول العماد:

«فقال لي: تسلّم الموضوع.. ورتبني فيه مدرّساً وناظراً. وكان ليلة الخميس، وحضر القاضي كمال الدين وعلماء البلد بكرة التدريس، فآستمرت الولاية وشملتني من الله الرعاية»[٣].

وقد سمّيت هذه المدرسة «العمادية» نسبة إلى العماد، لأنه درّس فيها مدة طويلة. ولم يكن أوّل من درّس فيها، إذ سبقه إلى ذلك كثيرون وكان بارعاً في درسه يتزاحم الفضلاء فيه لفوائده وفرائده»[٤].

---

(١) البنداري: المصدر نفسه ص٨٨، ١٠٢.
ـ أبو شامة: الروضتين ١/١٨٢.

(٢) توفي سنة ٥٦٢هـ وخلف ولدين استمرا فيها على رسم الوالد ثم عزلا وفوض إلى العماد أمر المدرسة سنة ٥٦٧هـ.

(٣) البنداري: سنا البرق الشامي ١٢٠.

(٤) عبد القادر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/٤١١.

٦ ـ تولي العماد مهام الإشراف على ديوان نور الدين وديوان الاستيفاء:

وفي عام سنة ٥٦٨هـ فوض نور الدين العماد الإشراف على ديوانه[١]، فأصبح المشرف على مملكته والحافظ الأمين لدولته بالإضافة إلى كتابة الانشاء وفي ذلك يقول:

«فجمعت بين المنصبين وقسمت نصيبي على النصيبين، فمرة للكتب والمناشير، وتارة للإثبات في الدساتير. ولم أثق بنائب وباشرت العمل بنفسي. على أنهم لا يلتفتون نحوي، ولا يبالون بكدري وصفوي، ولا يجرون إلّا ما أَلِفوه من العادة، ولا يشاورونني في الإبداء والإعادة. فما زلت أرد طباعهم وأصد أطماعهم حتى قويت على العمل، ورويت من علّه والنّهل»[٢]. وفي السنة نفسها كلّفه أن ينوب عن الموفّق خالد القيسراني المستوفي[٣] في الديوان بعد أن بعثه إلى مصر لمحاسبة صلاح الدين. لثقته الكبيرة به فجمع كما يقول الإنشاء والإشراف والاستيفاء، ووجدت الخِدم الثلاث بكفالتي وكفايتي الوفاء»[٤] فبذلك صار أكثر من يعتمد عليه

(١) إشراف الديوان هو المراقبة وتفتيش أمور الدواوين والمشرف كأنه المفتش العام للحكومة.
ـ البنداري: سنا البرق ١٢٠ ـ ١٢١ أبو شامة: الروضتين ١/٥٢٤.
(٢) البنداري: نفس المصدر والصفحة.
(٣) ديوان الاستيفاء هو ديوان المالية ويقابله الآن وزارة المالية، وكان يقال لرئيسها المستوفي.
ـ القلقشندي: صبح الأعشى ٥/٤٦٦ دوزي: ٢/٨٢٧.
(٤) البنداري: سنا البرق ص١٣١.

نور الدين. ولبث يتقلب في النعم وطاب عيشه وآستقام حاله طيلة حياة نور الدين.

٧ ـ أحوال العماد بعد وفاة نور الدين زنكي:

لما توفي نور الدين في شوال سنة ٥٦٩هـ تولى الحكم بعده ابنه الصالح إسماعيل وكان صبياً فأصبح العدْل أبو صالح بن العجمي[١] الذي أصبح وزيراً له وكان يحقد على العماد مكانته السابقة فأخذ يدبر له المكائد ويضايقه بشتى المضايقات وفي ذلك يقول العماد:

«ولما توفي نور الدين اختل أمري، وآعتل سري، وفاض دمعي وغاض بحري وعلتْ حسادي وبلغ مرادهم أضدادي، وكان الملك الصالح صغيراً فصار العدل ابن العجمي له وزيراً،وتصرف المخالفون في الخزانة والدولة كما أرادوا، وولوا وصرفوا ونقصوا أو زادوا، وآقتصروا بي على الكتابة، محروم الدعوة عن الإجابة»[٢].

وهكذا جرد العماد من مناصبه بآستثناء منصب الكتابة في ديوان الإنشاء. وآضطر إلى المسايرة وأوهمهم أنه معهم وذهب بصحبتهم إلى حلب حيث أقام بدار محيي الدين الشهرزوري إلى أن نمي إليه أن مؤامرة تدبر له بالاتفاق مع الإسماعيلية لاغتياله فآثر السلامة بترك جميع ما هو فيه وخرج من الـ بنيّة العودة إلى بغداد

---

(١) العدل اصطلاح يلقب به من يثق به القاضي ويعمئن إلى شهادته فيعينه لمعاونته في أعماله ومنها تسجيل الأحكام.
ـ البنداري: سنا البرق ١٥٩ ـ ١٦٠ أبو شامة: الروضتين ٥٨٨/١.

(٢) ـ البنداري: سنا البرق ١٦٣ ـ ١٦٤.

في أوائل سنة ٥٧٠هـ[١] فمر على حران، ثم وصل إلى الموصل حيث مرض بها مرضاً شديداً وأقام ينتظر الشفاء[٢]. وكان يتردد إليه كمال الدين ابن الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الجواد[٣].

٨ ـ اتصال العماد بالسلطان صلاح الدين الأيوبي:

ولما تماثل العماد للشفاء كان خبر خروج صلاح الدين من مصر قاصداً دمشق لتخليص الصالح إسماعيل من بطانة السوء والانتهازيين الذين أحاطوا به ولتوحيد الدولة في قوة تقف أمام الصليبيين، قد سرى سريان ضوء الشمس. فآنثنى العماد سنة ٥٧٠هـ عن مواصلة السير إلى بغداد، ورأى في العود إلى دمشق[٤] والالتقاء بصلاح الدين خيراً وبركة، وأمناً وطمأنينة، فقد سبق أن توثقت عرى الصداقة بينهما وتوطدت العلائق وتأكدت المودة، في ثامن جمادى الآخرة وصلاح الدين نازل على حلب، فنزل العماد في مدرسته فوجد أن مدرساً آخر قد تولاها، فأخرجه منها وعاد إلى التدريس فيها[٥]. وآنتظر حتى إذا ما عاد صلاح الدين إلى حمص وآستولى على قلعتها في شعبان ٥٧٠هـ، وافاه العماد إلى

---

(١) البنداري: المصدر نفسه ص١٦٦.

(٢) ياقوت: إرشاد الأريب ٨٢/٧.

(٣) هو علي بن محمد بن علي بن جمال الدين الجواد الأصفهاني وزير صاحب الموصل، كان من الأدباء. توفي سنة ٥٧٤هـ بدُنَيْسر.
ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٤٥/٥ ـ ١٤٦.

(٤) البنداري: سنا البرق ص١٨٤.

(٥) البنداري: المصدر نفسه ص١٨٥ أبو شامة: الروضتين ٦١١/١.

هناك فمدحه بقصيدة طويلة. وظل العماد ملازماً لصلاح الدين يمدحه بشعره إلى أن أدخله في خدمته وعيّنه كاتباً لديه يقول العماد:

«ولزمت خدمته أرحل برحيله وأنزل بنزوله وأواصل حضرته وأنشده شعري، إلى أن دخلت في خدمته وصرت مكاتب حضرته، فشغلني إنشاء الرسائل عن إنشاء المدائح، فغلب النثر وقلّ النظم. ولو ذكرت مدائحي في هذه السنة لكبر حجم الكتاب وخرج عن حد الإسهاب»[1] وكان حسّاد العماد قد أوهموا صلاح الدين أن تقريبه إليه وتقليده وظيفة الكتابة قد يكدر القاضي الفاضل ويضيق صدره سيما وأن هذا المنصب عنده أجل المنازل مما جعل السلطان يتردد في إسناد هذا المنصب للعماد خشية تكدير صفو القاضي الفاضل مع ميله للعماد نتيجة المعرفة السابقة به وتقديره لمواهبه، مما جعل العماد يلجأ إلى الأمير نجم الدين بن مصال[2] ويوسطه بينه وبين القاضي الفاضل وفي هذا يقول:

«وقد قرر حسادي عند السلطان وقالوا: شغَلَه الكتابة وهي منصب الأجل الفاضل وهو يستنيب فيه من يراه من الأفاضل، وهذا تصرفه رفِد جزيل ووجه جميل. والسلطان مع شدة رغبته فيّ متوقف وإلى ظهور وجه النجاح في أمري متشوف. وكنت قد أنست مدة مقامي في المعسكر بالأمير نجم الدين بن مصال وله يد عند

(١) البنداري: سنا البرق ص١٩٣ - ١٩٤.
(٢) كان والي الإسكندرية حين حاصر الفرنج فيها صلاح الدين سنة ٥٦٢هـ. - أبو شامة: الروضتين ١/٦٤١.

السلطان لاسيما عند كونه محصوراً بالإسكندرية. فلما ملكَ أحبّه وآختار قربه. فلزمت التردد إليه وجعلته الوسيط بيني وبين الأجل الفاضل وآتخذته من أنجح الرسائل ووقفت خاطري على تقاضيه نظماً ونثراً»[1].

فدخل القاضي الفاضل إلى السلطان وعرّفه أنه في العماد راغب خصوصاً أنه لا يمكن أن يلازمه في كل سفراته، فوجب أن يكون من ينوب عنه في المراسلات بين السلطان وسائر الملوك والعماد يفي بالمطلوب لإتقانه اللغتين العربية والفارسية، فوافق قوله مراد السلطان. وهكذا صار العماد معاون القاضي الفاضل في كل الأمور وآستعاد مقامه القديم وصار كاتب سر صلاح الدين أيضاً[2]. وبذلك تطوى صفحة مليئة بالمتاعب والشدائد من حياة العماد وتنشر صفحة جديدة سيبلغ فيها أوج المجد ويرتفع ذكره ويخلد اسمه بين الخالدين فقد استكتبه صلاح الدين ووثق به وقرّبه إليه وصار من خاصته يصرف الأمور ويقسم الأموال التي يسلمها إليه السلطان ويوقع على ما يوقع عليه دون مراجعة ويقضي حاجات من يلجأ إليه من الناس ويزاحم الوزراء وأعيان الدولة وإن لم يصل إلى نفس المكانة العالية التي كانت للفاضل في نفس صلاح الدين.

وقد لزم العماد السلطان بعد هذا أكثر من القاضي الفاضل الذي كان يتخلف عن السلطان كثيراً ويقيم في القاهرة ودمشق

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/١٤٩ ياقوت: إرشاد الأريب ٧/٨٤.

(٢) البنداري: سنا البرق الشامي «المقدمة» ص١١.

ليشتغل بالأعمال السلطانية. وشهد عنده المشاهد كلها إلا وقعة الرملة في أوائل سنة ٥٧٣هـ. وفتح عسقلان ومحاصرة القدس سنة ٥٨٣هـ[١]. وأنشأ في هذا العهد الطويل الرسائل والمناشير والتبشيرات الكثيرة. وأشترك في بعض المذاكرات كما وقع حين محاصرة حلب سنة ٥٧١هـ[٢] ومحاصرة الموصل سنة ٥٧٨هـ. ودخل مجالس المشورة كما ذكر ذلك في عدة مواضع من كتابيه البرق والفتح.

٩ ـ علاقة العماد بالقاضي الفاضل:

وهنا لابد من الإشارة إلى الصلة الوطيدة التي نشأت بين العماد والقاضي الفاضل (ولا) عجب في ذلك فقد كان العماد ينحو في كتاباته نحو مذهب أصحاب التصنع، ذلك المذهب الذي كان الفاضل يتبعه ويدعو له، والذي كان لديه فيه من البراعة الفنية ما جعله ينهض بصعوباته دون أن يستشعر الإنسان ما فيها من الأثقال. وما من شك في أن الفاضل كان أبلغ كتاب العصر الأيوبي فدفع العصر كله من ورائه في دوائر نماذجه، وكان العماد يقول عنه «رب

---

(٢) البنداري: نفس المصدر ١٩١.

(٢) هو عبد الرحيم بن علي بن السعيد التميمي (٥٢٩ ـ ٥٩٦هـ/١١٣٥ ـ ١٢٠٠م) البيساني المعروف بالقاضي الفاضل، عاصر العماد وبينهما مراسلات، عرفت طريقته في الكتابة والإنشاء بالطريقة الفاضلية وقلّدها من جاء بعده من المنشئين. وزر للسلطان صلاح الدين وتولى له ديوان الإنشاء وله ديوان شعر مطبوع.

ـ ابن العماد: شذرات الذهب ٤/٣٢٤ ـ ٣٢٥.

ـ جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ٢/٣٤.

القلم والبيان، واللسن واللسان» كما كان الفاضل يقدره بقوله: «العماد الكاتب كالزناد الوقاد» وقد سجلت لنا كتب الأدب والتاريخ بعضاً من المحاورات اللطاف التي كانت بين الكاتبين. فقد لقي العماد الفاضل وهو راكب على فرس فقال له: سر فلا كبا بك الفرس» فردّ عليه الفاضل: دام علا العماد. وهذا مما يقرأ مقلوباً وصحيحاً سواء. وهو ضرب من البديع يسمى القلب، وهو من المحسنات اللفظية. وآجتمعا يوماً في موكب صلاح الدين، وقد آنتشر من الغبار، لكثرة الفرسان، ما سدّ الفضاء. فتعجّبا من ذلك. فأنشد العماد في ذلك[1]:

أما الغبار فإنه ... مما أثارته السنابك
والجو منه مظلم ... لكن أنارته السنا بك
يا دهر لي عبد الرحيم ... فلست أخشى مس نابك

ونلاحظ أن الجناس قد آتفق في الأبيات الثلاثة وهو في غاية الإبداع وعند حجّ الفاضل سنة ٥٨٢هـ من مصر وركب البحر في طريقه. كتب العماد إليه رسالة ورد فيها:

«طوبى للحجر والحجون من ذوي الحجر والحجا. منيل الجدا، ومنبر الدجى، ولندى الكعبة من كعبة الندا، وللهدايا المشعرات من مشعر الندى.. لقد عاد قسّ إلى عكاظه، وعاد قيس لحفاظه، ويا عجباً لكعبة يقصدها كعبة الفضل والإفضال ولقبلة يستقبلها قبلة القبول والإقبال».

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٥٠ ـ ١٥١.

وقد ذكر العماد فضل الفاضل عليه في عدة مواضع من كتابه «الفتح القدسي» من ذلك قوله عنه حين قدم على صلاح الـدين بالشام سنة ٥٨٧هـ[١]:

«رب الفضائل والفواصل». ثم يذكر كيف تحدث مع السلطان في رفع رتبته وراتبه «ونبه قدري، ونوه بذكري وسعى في رفع رتبتي وزيادة راتبي. . . ولولا أنني قويت به لأقويت، ولولا أنه أولاني عارفته لما عُرِفت ولا تولّيت. فأنا شاكر نعمه عمري، وعامر كرمه بشكري».

١٠ ـ أحوال العماد بعد وفاة السلطان صلاح الدين:

ولما مات السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ أفل نجم العماد، فاختلّت أحواله وساءت أموره ولم يعامله أولاد صلاح الدين معاملة أبيهم له، وأقصوه عن مركزه. وفي ذلك يقول العماد في مقدمة البرق الشامي:

«ولما نقله الله الكريم إلى جناب جنانه اقتسم أولاده ممالكه، وقلت: سلكوا مسالكه ونسكوا مناسكه وإنهم يعرفون مقداري، ويرفعون مناري ويشرحون صدري ولا يضعون قدري. فأخلف الظن حتى قطعوا رسومي ومنعوا مرسومي، وغوروا منابعي وكدّروا مشارعي»[٢].

وبعد موت السلطان صلاح الدين لا يذكر المؤلفون الذين

---

(١) العماد الأصفهاني: الفتح القسي ٤٦١ ـ ٤٦٢.

(٢) البنداري: سنا البرق الشامي ص٥٢.

ترجموا للعماد شيئاً من أخباره فيقول ياقوت: إنه «لزم بيته وأقبل على التصنيف والإفادة»[1]. كما يذكر ابن خلكان أنه «لزم بيته وأقبل على الاشتغال والتصانيف»[2] لكننا نستطيع أن نستدل على أخباره في هذه السنوات الأخيرة من عمره من خلال ما وصلنا من مؤلفاته. فالعماد على ما يبدو من كتابه نحلة الرحلة الذي يورد أبو شامة أخباراً منه في كتاب الروضتين ظل على اتصال بالأفضل علي بن صلاح الدين حاكم دمشق. ذلك أن الأفضل حين أراد الرحلة إلى مصر سنة ٥٩٠هـ أصحبه الأفضل رسالة إلى أخيه العزيز، فمضى إليه وعنده عمه العادل. ولم يتمكن من الرجوع إلى دمشق إلا معهما عندما خرجا بالعساكر لمحاربة الأفضل وذلك سنة ٥٩٢هـ[3].

ويبدو أن العماد عاد بعد هذه الفترة إلى الدرس والتأليف. ويتضح ذلك من رسالة بعث له بها القاضي الفاضل[4] من مصر سنة ٥٩٥هـ يشكو فيها حياة العزلة في مصر ويعد مقدرة العماد على الانكباب على الدرس والتأليف نعمة يتعيّن شكرها فيقول:

«وأنا على ما يعلمه المولى من العزلة إلاّ أنها بلا سكون، وفي الزاوية المسنونة لأهل العافية في الزمان المجنون، ونحن على انتظار البرق الشامي أن يمطر وحاشا ذمة الوعد به أن تخفر. وآشتغال سيدنا في هذا الوقت بالدرس والتدريس والتصوير

---

(١) ياقوت: إرشاد الأريب ٧/ ٨٥.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/١٥٢.

(٣) أبو شامة: الروضتين ٢/ ٢٢١.

(٤) أبو شامة: المصدر نفسه ص٢٢٨.

والتكييف، والتصانيف التي تصرف فيها بالبلاغة أحسن التصاريف نعمة يتعين شكرها على العلماء، ويختص باللذة بها سادتهم من الفقهاء»[1].

وظل العماد حتى سنة ٥٩٦هـ على اتصال بالقيّمين على الحكم في دمشق، فقد أستدعى العادل ابنه الكامل إلى مصر ليستنيبه فيها وكان نائب السلطان في حران، فقرر العماد أن يصحبه إلى مصر. وكان قد مدحه بقصيدة يقول فيها[2]:

دعتك إلى سلطانها فأجب
دعاءها فهو حق غير مكذوب

وحدثت مجاعة في مصر ذلك العام أثناء وجود العماد هناك، وهلك الناس جوعاً وحاولوا الهرب من مصر. وكذلك فعل العماد. فكانت مراكب الإفرنج على ساحل البحر تصطاد النازحين. وقد وصف العماد ما رآه في طريقه من مصر إلى دمشق بقوله:

«في هذه السنة اشتد الغلا وآمتد البلا، وتحقّقت المجاعة وهلك القوي فكيف الضعيف. ونهك السمين فكيف العجيف. وخرج الناس حذر الموت من الديار، وتفرق فرق بمصر في الأمصار. ورأيت الأرامل على تلك الرمال والجمال باركة تحت الأحمال ومراكب الإفرنج على ساحل البحر على اللقم تسترق

(١) أبو شامة: المصدر نفسه.
(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٢٠٨/٨.

الجياع باللقم. فقلّ من إلى الشام خلص إلاّ بعد أن قلّ عدد أهله ونقص»[1].

ووصل العماد إلى دمشق. وحدثت فيها ذلك الحين زلزلة عظيمة امتدت من صعيد مصر إلى أذربيجان في ساعة واحدة[2] فتهدمت مدن عديدة ومات خلق كثيرون. وتهدّمت معظم دور دمشق وأصابها خراب عظيم ونزح أهلها عنها[3].

تأثر العماد بما عايشه في هـذه السنة في مصـر ودمشق من أهوال، فمرض وعاش وحيداً. ويقـول ابن خلكان: انه سمع من بعض من كان ملازمه مدة مرضه أنه إذا دخل أحد يعوده أنشده:

أنـا ضيـف بـربـعـكـم
أيـن أيـن الـمـضـيـف؟
أنـكـرتـنـي مـعـارفـي
مـات مـن كـنـت أعـرف[4]

11 ـ وفاة العماد:

وتوفّي العماد يوم الاثنين مستهل شهر رمضان سنة ٥٩٧هـ/ ٢٠ حزيران ١٢٠١ بدمشق. ودفن في مقابر الصوفية خارج بـاب النصر[5].

(١) سبط ابن الجوزي: نفس المصدر والصفحة.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٥٢/٥.
(٣) ابن خلكان: نفس المصدر والصفحة ـ أبو شامة: الروضتين ٢٤١/٢ ـ ٢٤٥ ـ ابن الأثير: الكامل ١١٢/١٢ ـ السبكي: الطبقات الكبرى ٩٨/٤.
(٤) البنداري: سنـا البرق «المقدمة» ص١٢ حاشية٣.
(٥) البنداري: نفس المصدر والصفحة حاشية ٤.

١٢ ـ صفته وأخلاقه وشخصيته:

كان العماد كوْسَجاً. خفيف اللحية وفي عينه عَمَش. «فيه فتور إذا نُظِر. ولكن إذا أخذ القلم وكتب أتى بالعجائب». ولذلك قال القاضي الفاضل فيه: «هو كالزناد ظاهره بارد وباطنه فيه نار»(١) وأتى عز الدين فرُّخشاه(٢) مثلاً فيه وقرأ: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب﴾(٣). وكان فقيهاً شافعياً على مذهب الأشاعرة. ولم يكن له اعتقاد سياسي واضح فهو يراعي في كل الأزمان حق من أعانه وحماه مثل مقام الخلافة ونور الدين وصلاح الدين والقاضي الفاضل ويشكرهم في كل كتبه. وكان يحب جمع المال كما نراه في حوادث شتى من ترجمته(٤). ولكنه كان مؤتمناً ورحيماً يحترمه الرجال الذين عاشوا حوله ويفضّله الكبراء.

وكان يحمي الرجال ويشفع لهم عند السلطان لقضاء حاجاتهم(٥) ومع هذا يكره الإسراف ولا يستصوبه في كل شيء. ويكره أيضاً تخريب المواريث العلمية والثقافية(٦). ويشهد على

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ١٣٩.

(٢) هو ابن شاهنشاه بن أيوب تولى بعلبك وناب مدة بدمشق عن عمه صلاح الدين توفي سنة ٥٧٨هـ ودفن في قبته التي بمدرسته.
ـ ابن العماد: شذرات الذهب ٤/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

(٣) سورة النمل ٨٨.

(٤) البنداري: سنا البرق ص١٠٣، ١١٨، ٢١٢، ٢٣٤، ٣١١.

(٥) البنداري: سنا البرق ص٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٦) العماد الأصفهاني: الفتح القسي ٢٣٨.

هذا أسفه لنهب الكتب الموجودة في خزانة الخلافة الفاطمية[١]. ولا يحب أيضاً إراقة دم بغير حق وتجزية الرجال بالجزاء العنيف. وكان يقول: «بالخير يستعبد الرجال»[٢] ولهذا لم يقتل رجلاً ولو كان عدواً له في مدة حياته. وإذا عرضوا عليه قتل أسير يأباه[٣].

وكان العماد رجلاً مجتهداً. دليل هذا ما ألّفه من الكتب الكثيرة وعمله العلمي مع كثرة اشغاله بالأعمال السلطانية، وتدريسه في المدرسة التي تولّاها وفي جامع دمشق. وكان بارعاً في درسه يتزاحم الفضلاء فيه لفوائده وفرائده. وكان السلطان نور الدين والسلطان صلاح الدين يعتمدان عليه كلياً، وهما يفضلانه ويثقان به. مرض مرتين وخلَع السلطان صلاح الدين البشيرين بشفائه[٤].

ويظهر في كتبه أنه يبالغ فيمن أحبّه. هذا بسبب اشتغاله بالكتابة ولكنه ليس مداهناً وابن اليوم[٥] الذي هو فيه.

ولا شك أن أكثر ما يتميز به العماد هو الأدب وصنعة الإنشاء. ويكثر استعمال الصنائع البديعة في رسائله وكتبه. وقد نقده المؤلفون المتقدمون مثل الصفدي وغيره[٦] بسبب كثرة استعماله

---

(١) البنداري: سنا البرق ٢٣٤ ـ ٢٣٥.
(٢) البنداري: نفس المصدر ص٢١٤.
(٣) البنداري: سنا البرق ص٣٠٧ ـ ٣٠٨.
(٤) البنداري: سنا البرق المقدمة ص١٣.
(٥) العماد: الفتح القسي ٥٠٣ ـ ٥٠٥.
(٦) الصفدي: الوافي بالوفيات ١/٥٤ ـ ٥٥ ـ السبكي: الطبقات الكبرى٤/٩٨.

الجناس. ورغماً عن هذا مدح العلماء كلهم شعره ونثره[1] وقال ابن الأثير فيه، مع كونه مخالفاً له في السياسة: «كان كاتباً مفلقاً قادراً على القول»[2].

وكان أكبر كتاب عهد العماد القاضي الفاضل، ثم يليه العماد في المنزلة وهو يعترف أيضاً أنه منشىء على طريقة القاضي الفاضل[3] ولكنه كان كاتباً وحيداً يزاحمه في صنعة الكتابة. ثم إنه كان يفوق على القاضي الفاضل بآستعماله اللغة الفارسية مثل العربية في الكتابة ولهذا وصفه المؤلفون بـ «ذو البلاغتين»[4].

١٣ ـ مؤلفات العماد الأصفهاني:

عني العماد رغماً عن شغله الكثير بالكتابة والأعمال السلطانية بطلب العلم وتدريسه، وجمع مواد كتبه طول عمره، ولم ينقطع عمله العلمي في أي عهد من مراحل حياته، وقد ألّف أكثر من خمسة وأربعين مجلداً في التاريخ السياسي والأدبي، والشعر والنثر. ونقل كتابين من الفارسية إلى العربية. ولم تصلنا كل مؤلفات العماد، وإن كنّا نستطيع أن نتعرف على بعض أسماء كتبه ومحتوياتها من المؤلفين الذين ترجموا له ومما ذكره هو في مؤلفاته. وأهم كتبه حسب ترتيب تواريخ تأليفها: هي:

١ ـ تعليقاته من مناظرات أبي الوفا علي بن عقيل الحنبلي

---

(١) الصفدي: نفس المصدر والصفحة.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٢/١١٢ ـ ١١٣.

(٣) أبو شامة: الروضتين ٢/٢٤١.

(٤) البنداري: سنا البرق ص٦٧.

لأبي الحسن علي بن محمد المعروف بالكيا الهراسي، وهي مفقودة[1].

٢ ـ تعليقاته من مجالس وعظ قطب الدين أبي منصور المظفر بن أردشير العبادي المتوفى سنة ٥٤٧هـ، علّقها من لفظه سنة ٥٤١هـ وهو في الثانية والعشرين من عمره. هذه التعليقات مفقودة أيضاً[2].

٣ ـ مجموعة أشعار عمّه العزيز. وقد جمعها بأصفهان في سنوات ٥٤٣هـ ـ ٥٤٩هـ ولكنها بقيت بأصفهان عند مسير العماد إلى بغداد سنة ٥٤٩هـ. وهي مفقودة أيضاً[3].

٤ ـ ترجمة فتور زمان الصدور لأنوشروان بن خالد الوزير المتوفى سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٢م وذلك من الفارسية إلى العربية. وهو تاريخ الدولة السلجوقية من أول عهد ملكشاه الأول إلى آخر عهد طغرل بن محمد بن ملكشاه. وقد نقله العماد إلى العراق، ثم هذّبه ودَرَجه في نصرة الفطرة، وهو الآن موجود في نصرة الفطرة.

٥ ـ ديوان شعر في أربعة مجلدات. رتّبه قبل سنة ٥٧٢هـ. قال في الخريدة: «نشوة الدولة أبو الفضل.. وقد كتب ديوان شعري ورسائلي وهو يتولى الإشراف»[4].

---

(١) العماد الأصفهاني: خريدة القصر قسم العراق ترجمة أبي الوفا علي بن عقيل.

ـ البنداري: سنا البرق ص١٤ حاشية٦.

(٢) البنداري: زبدة النصرة ٢٣٥.

(٣) البنداري: سنا البرق «المقدمة» صفحة١٥ حاشية٢.

(٤) العماد الأصفهاني: الخريدة، قسم الشام٣٢٩.

ونحن نعرف أن الخريدة انتهى تأليفه في أوائل سنة ٥٧٣هـ. ومنه بعض قصائد في الخريدة والبرق الشامي والروضتين لأبي شامة. وقد ورد في نشرة أخبار التراث العربي أن جامعة الموصل قد نشرت سنة ١٩٨٢ ديوان العماد الأصفهاني بتحقيق الدكتور ناظم رشيد(١).

٦ - ديوان رسائله في ثلاثة مجلدات، ونستدل من النص المذكور أن العماد ألّفه أيضاً قبل سنة ٥٧٢هـ. وقد زاد العماد هذا الديوان وديوان شعره أشياء كثيرة بعد الترتيب. وهو أيضاً مفقود. ومنه بعض رسائل في البرق والفتح القدسي وغيرهما من مؤلفات العماد وكذلك في كتاب الروضتين لأبي شامة.

٧ - ديوان دُوبَيْته أي رباعيته في مجلد صغير. وقد رتّبه أيضاً قبل سنة ٥٧٢هـ وهو أيضاً مفقود ونقلت منه بعض أبيات في البرق الشامي والروضتين(٢).

٨ - خريدة القصر وجريدة العصر: هو كتاب يترجم للشعراء والأدباء الذين عاشوا في أواخر القرن الخامس والقرن السادس في الديار الإسلامية جميعاً ويورد مقطوعات من شعرهم ونثرهم. وقد أورد العماد فيه تراجم الأدباء من بعد سنة ٥٠٠هـ. حتى آخر سنة

---

(١) أبو شامة: الروضتين ١/١٧٤ - ١٧٧ ياقوت: إرشاد الأريب ١٩/٢٠ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/١٥٠ الصفدي: الوافي بالوفيات ١/١٣٧ معهد المخطوطات العربية: نشرة التراث العربي العدد ١٥ سنة ١٩٨٤.

(٢) أبو شامة: الروضتين ١/٢٠٣ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/١٥٠. - ياقوت: إرشاد الأريب ١٩/١٠ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٦/٩.

٥٧٢هـ. وهو في عشرة مجلدات ضخمة. ويقسم إلى أربعة أقسام وفي ذلك يقول العماد:

فأما ما ذكر في الكتاب الكريم الفاضلي من الجريدة وكشفها والخريدة ورشفها، فإنه يشير إلى ما صنّفته في مصر على مثال يتيمة الدهر من شعر أهل العصر، وسمّيته كتاب خريدة القصر وجريدة العصر إلى آخر سنة ٥٧٢[١]، وأوردت فيه من بعد سنة ٥٠٠هـ وهو في عشر مجلدات ضخمة[٢] مشتملة على كل حكم وحكمة، على أربعة أقسام على نسق متناسب ونظام[٣].

ويرى ابن خلكان أن الكتاب حلقة في سلسلة من الكتب التي

---

(١) وردت في الخريدة هذه العبارة حول أحد الشعراء: «ذكر لي سنة ثلاث وسبعين بمصر أنه يعيش» قسم شعراء المغرب ١/٢٤٥ (تونس ١٩٦٦). ولا توجد عبارة غيرها تشير إلى ما بعد سنة٥٧٢هـ.
- ريتا عوض: العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر - قسم شعراء المغرب والأندلس. مقالة منشورة في مجلة الباحث العدد التاسع السنة الثانية سنة ١٩٧٩ ص١٣٨ حاشية ٥٧.

(٢) جاء في آخر صفحة من مخطوطة باريس «تم الجزء الحادي عشر من الخريدة، يتلوه الجزء الثاني عشر شعر ابن خفاجة الأندلسي وهو آخر الكتاب» وهذا التقسيم يختلف عن تقسيم العماد في البرق الشامي. ويبدو أن النساخ هم المسؤولون عن التقسيم السالف.
- سنا البرق، المقدمة ص ١٦ أخذها المحقق رمضان ششن عن مخطوطة البرق الشامي الجزء الثالث ورقة ٣٥أ وأيضاً ريتا عوض مرجع مذكور سابق.

(٣) البنداري: سنا البرق الشامي «المقدمة» ص١٦.

صنفت في ترجمات أدباء عصر معيّن عاش فيه مصنف كل من هذه الكتب. يقول[1]:

«وصنّف (العماد) التصانيف النافعة. من ذلك كتاب خريدة القصر وجريدة العصر جعله ذيلاً على زينة الدهر تأليف أبي المعالي سعد بن علي الوراق الحظيري[2]، والحظيري جعل كتابه ذيلا على دمية القصر وعصرة أهل العصر للباخرزي[3]، والباخرزي جعل كتابه ذيلاً على يتيمة الدهر للثعالبي[4]. والثعالبي جعل كتابه ذيلاً على كتاب البارع لهارون بن علي المنجم»[5].

غير أن العماد لا يذكر كتاب زينة الدهر في مقدمته ويشير إلى كتابين أعجباه في هذا المجال يتيمة الدهر ودمية القصر، ويبدو

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٤٩/٥ ـ ١٥٠.

(٢) هو أبو المعالي سعد بن علي بن القاسم الأنصاري الخزرجي الحظيري المعروف بدلّال الكتب، توفي في بغداد سنة ٥٦٨هـ لم يصلنا كتابه وعن ترجمته
ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣٦٦/٢ ـ ٣٦٨.

(٣) هو أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزي، الشاعر المشهور، قتل بباخرز سنة ٤٦٧هـ وكتابه مطبوع نجد ترجمته في:
ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣٨٧/٢ ـ ٣٨٩.

(٤) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري. توفي سنة ٤٢٩هـ وكتابه مطبوع. نجد ترجمته في:
ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٧٨/٢ ـ ١٨٠.

(٥) هو أبو عبد الله هارون بن علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم البغدادي، توفي سنة ٢٨٨هـ. لم يصلنا كتابه وترجمته في:
ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٧٨/٦ ـ ٧٩.

أنهما كانا المثال الذي كان يتطلع العماد إليه دون كتاب الحظيري، لأنه يعدهما أفضل الكتب في مجالهما يقول:

«وكنت قد طالعت كتابي يتيمة الدهر ودمية القصر للثعالبي والباخرزي في محاسن أهل عصريهما الشعراء. وقد بلغا الجهد في إظهار اجتهاد البلغاء. وما وجدت بعد ذلك من عني ذلك كعنايتهما. ولا من حدّث نفسه أنه يبلغ إلى غايتهما، فصنفت هذا الكتاب وألّفته. ورقمت هذا الوشي وفوّقته وسميته خريدة القصر وجريدة العصر»[1].

لكن العماد لم يحاك كتابي الثعالبي والباخرزي[2]، غير أن ابن خلكان رتّب هذه السلسلة بحسب تواريخ تأليفها دون أن يقصد بالتذييل الاتباع بأي من وجوهه، وليس مستحيلاً أن يكون الحظيري قد ألّف كتابه مدة طويلة قبل وفاته وليس من الضروري أن يكون قد آستوفاه حتى وفاته، كما توقف العماد عن إكمال خريدته[3]، الأمر الذي يعني أنه من المحتمل أن يكون العماد قد ترجم لجيل من معاصريه لم يترجم لهم الحظيري، وفي هذه الحالة يفهم ما قصد إليه ابن خلكان بقوله إن الخريدة ذيل على زينة الدهر[4].

---

(١) العماد الأصفهاني: خريدة القصر «قسم العراق» ١/٥ - ٦.

(٢) يقع كتاب الباخرزي في سبعة أقسام، أما كتاب الثعالبي وإن كان يقع في أربعة أقسام مثل الخريدة، إلّا أن التقسيم الذي اعتمده يختلف عن التقسيم الذي اعتمده العماد في الخريدة.

(٣) البنداري: سنا البرق الشامي «المقدمة» ص١٧.

(٤) يرى محمد بهجة الأثري في مقدمته لكتاب الخريدة قسم العراق، أنه كما =

لم يذكر العماد في مقدمة الخريدة أقسام كتابه، لكنه ذكر ذلك في كتاب البرق الشامي وعدد أقسامه الأربعة بقوله[1]:

القسم الأول: بغداد وما يجري معها من العراق، وقد قدّمتها بالاستحقاق لأنها مدينة السلام ودار الإسلام ومقام الإمامة المعظمة ومقر الخلافة الممجدة المكرّمة[2].

والقسم الثاني: فضلاء عراق العجم وخراسان وغزنة وأذربيجان وأرّانية وما وراء النهر بلاد البر والبحر[3].

والقسم الثالث: شعراء الشام والجزيرة والموصل وديار بكر. وختمت هذا القسم بشعراء الحجاز واليمن وصنعاء وزبيد وعدن[4].

= يتضح لمن يدرسه بأدنى تأمل لا يمكن أن يكون إلاّ تذييلاً لكتاب الباخرزي الذي هو من شعراء القرن الخامس دون سواه فيما تذهب ريتا عوض مذهباً مختلفاً للمقارنة انظر مقدمة الخريدة «القسم العراقي ١ / ٨٩ وريتا عوض مرجع مذكور سابقاً ص٣٣.

(١) سنا البرق الشامي «المقدمة» عن مخطوطة البرق الشامي في الجزء الثالث ورقة ٣٤ ب.

(٢) صدر في بغداد الجزءان الأول والثاني عامي ١٩٥٥و١٩٦٤. وصدر الجزء الرابع في قسمين عام ١٩٧٣ بتحقيق محمد بهجة الأثري وجميل سعيد. أما الجزء الثالث فلا يزال ينتظر الصدور.

(٣) لم ينشر هذا القسم بعد مع أن مخطوطاته موجودة.

(٤) نشر شكري فيصل قسم شعراء الشام بدمشق في سنوات ١٩٥٥و١٩٥٦و١٩٦٤ وذلك في ثلاثة أجزاء. ثم وجد المحقق المقطع الأول من الكتاب وكان ساقطاً في المخطوطات التي اعتمدها من قبل فنشره سنة ١٩٦٨ عن مجمع اللغة العربية بدمشق.

والقسم الرابع: ينقسم إلى قسمين أحدهما مصر وأعمالها وصعيدها وأسوانها[١]. والثاني البلاد المغربية وأندلسها وقريبها وبعيدها ومهديها وقيروانها[٢].

ويذكر العماد في مقدمة الخريدة ثلاثة دوافع حملته على تأليف كتابه هذا.

أولها: أنه أراد أن يجمع ما قيل في عصره من شعر ويحميه من الضياع «آثرت أن أكثر من مآثر أهل العصر ما يخلد آثارهم ويجدد منارهم»[٣].

ثانيها أنه تأثر بكتابي الباخرزي والثعالبي فأراد أن يتابعهما فيما صنّفاه[٤] وقد نقل ياقوت في ترجمته للباخرزي عن العماد قوله: «وهو الذي صنّف كتاب دمية القصر في شعراء العصر، وطالعت هذا الكتاب بأصفهان في دار الكتب التي لتاج الملك بجامعها. وبعثني ذلك على تأليف كتابي هذا»[٥].

---

(١) نشر أحمد أمين وشوقي ضيف هذا القسم سنة ١٩٥١و١٩٥٢ في جزأين.
(٢) نشر هذا القسم مرتين: طبعة مصرية في جزأين عامي ١٩٦٤و١٩٦٩ عن دار نهضة مصر للطبع والنشر. وطبعة تونسية بتحقيق محمد المرزوقي ومحمد العمروسي المطوي والجيلاني ابن الحاج يحيى واذرتاش أذرنوش في ثلاثة أجزاء أعوام ١٩٦٦و١٩٧١و١٩٧٢ عن الدار التونسية للنشر.
(٣) العماد الأصفهاني: الخريدة «قسم شعراء العراق» ٤١١.
(٤) العماد الأصفهاني: المصدر نفسه ص٥ ـ ٦.
(٥) ياقوت: إرشاد الأريب ٥/ ١٢١.

والثالث: أن العماد أراد أن يكافىء الشعراء الذين مدحوا عمه العزيز بأن يخلد ذكراهم ويخلد عمه بأن يجمع ما قاله الشعراء فيه. وقد جعل العماد هذا الدافع، في مرتبة الصدارة، فقال:

والـذي بعثني على جمع هـذا الكتـاب أنني وجـدت المعاصرين لعمي الصدر الشهيد عزيز الدين أبي نصر أحمـد بن حـامد من الشعـراء ما فيهم إلاّ من أمّ قصـده وطلب ووفـد عليـه بمدحه، وآسترفده من منحه، وفاز عنده بنجحه، فأحببت أن أحيي ذكرهم وأقابل بمجازاة شكري شكرهم وكانت المدائح المجموعة في عمي العزيز مجلدات. غير أن العدو لما نكبه نهبها وذهب بها وأذهبهـا، لكنـه لم يسلب الأصـل والمحتـد، ولـم ينهب المجـد والسؤدد. وقد كتبت منها بعض ما حصلته ومهدت به ذكـره على قاعدة الخلود وأثلته»[1].

وقد ترجم العمـاد لأهل عصـره وأهل عصـر أبيه وأعمـامه «فـالكتاب مشتمـل على العصرين السـالف المـاضي والحـاضـر النامي»[2]. ويقول: إنه حرص على أن يروي عن الشاعر مباشرة إذا أدركه أو سمع منه، أو أن يروي عن واحد روى عنه[3]. ولم يقتصر على جمع الجيد من الشعر بل أثبت كل ما وصل إليه «ولم اقتصر على المنتقى المنتقد، والمتنخل المنتخب، بل ذكرت لكل شاعر ما وقع إلي من شعره وأثبته»[4].

---

(١) العماد الأصفهاني: الخريدة قسم العراق ١/٧ ـ ٨.

(٢) العماد الأصفهاني: نفس المصدر ص٧.

(٣) العماد الأصفهاني: نفس المصدر والصفحة.

(٤) العماد الأصفهاني: نفس المصدر والصفحة.

وللخريدة مختصران، الأول منهما لعبد العظيم المتوفى سنة ٦٥٦هـ. وقد ذكره ابن خلكان[1] وهو مفقود، والثاني بعنوان «عود الشباب» لعلي بن محمد الرضائي القسطنطيني الرومي المتوفى سنة ١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م وهو موجود وله نسخ كثيرة في مكتبات العالم.

٩ ـ كيمياء السعادة: يذكر العماد هذا الكتاب فيقول انه في سنة ٥٧٦هـ عرّب كتاب كيمياء السعادة لأبي حامد الغزالي في مجلدين بإشارة من القاضي الفاضل وهو أيضاً مفقود[2].

١٠ ـ ذيل الخريدة وسيل الجريدة في ثلاثة مجلدات، صنّفه ذيلاً لخريدة القصر ولم يذكر تاريخ تأليفه، لعله قبل سنة ٥٧٩ وصار مصدراً لابن خلكان وغيره من المؤلفين وهو أيضاً مفقود، يقول العماد:

«تمّ هذا الكتاب ونسخت منه نسخ، ولم يبق لحكمه منسخ ولا لعقده منفسخ وتجدّد بعد ذلك ما تعذر به الإلحاق، وتمكن من تغيير وضع الكتاب الإشفاق، فشرعت في تأليف كتاب آخر سميته ذيل الخريدة وسيل الجريدة، ثم شغلتني المهام السلطانية عن استيعاب ذكر المتجددين وآستيفاء حديث المحدثين وقد آجتمع منه كثير، وأسأل الله التوفيق لإتمامها فهو قدير[3] وقد ذكر

(١) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٦/٨ ـ ٩ ومقدمة الناشر لكتاب الخريدة «قسم العراق» ١/٩٤ ـ ٩٥.

(٢) البنداري: سنا البرق الشامي ٣٥٨.

(٣) البنداري: سنا البرق «المقدمة» ص١٧ أخذها المحقق عن مخطوطة البرق الجزء الثالث ١٣٥أ.

ابن خلكـان أنـه وقف على هذا الكتاب وسماه: «السيــل على الذيل»(١).

١١ ـ نصرة الفِطرة وعُصرة الفطرة في أربـع مجلدات وهو تاريخ للدولة السلجوقية ووزرائها من أول عهد السلاجقة إلى سنة ٥٧١هـ. وبعد أن كان العماد نقل في العراق فتور زمان الصدور لأنوشروان بن خالد، هذّبه وألحق في أوله تاريخ السلاجقـة قبل ملكشاه، وزاد في آخره ما جرى في عهده في سلاجقة خراسـان والعراق إلى سيره إلى دمشق من العراق. ثم لخص ما وقع من سنة ٥٦٢هـ إلى سنة ٥٧١هـ في آخر الكتاب. وأتم تأليفه سنة ٥٧٩ وقـال: «وهو إلى اليـوم من سنـة ٥٧٩هـ حسن السيـرة، صـافي السريرة»(٢). وأسرة السلاجقة بدأ نجمها بالظهور على مسرح تاريخ الدولة العبـاسية حـوالي منتصف القرن الخـامس الهجري حيث خلفت الأسرة البويهية المنهارة. ثم توزع سلطان هذه الأسرة بتأثير عامل المصالح الشخصية لأمرائها. وكان العماد قد اتصل بهؤلاء السلاجقة قبيل قدومه إلى الشام وتولى التدريس ببعض المدارس التي أنشؤوها، كما تولى في ظلهم منصباً إدارياً في مـدينة واسط بالعراق. وقد حملته صلتـه هذه على تـدوين تاريخهم في مؤلف خاص. وهذا الكتاب غير مطبوع إلى اليـوم رغم أن مخطوطـات الكتاب موجودة(٣).

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥٥/١٥٠.

(٢) البنداري: زبدة النصرة ١٣٦.

(٣) أبو شامة: الروضتين ١/١٢٤ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/١٥ ياقوت: =

وقد اختصره أبو إبراهيم فخر الدين الفتح بن محمد بن الفتح قوام الدين البنداري ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م تحت عنوان «زبدة النصرة ونخبة العصرة»، وقد نشره هوتسما في ليدن سنة ١٨٨٩ تحت عنوان:

Histoire des Seldjoucides de L'IRaq P.M. th. Houtsma Recueil de textes rel. à l'histoire de Seldj. Leyde 1889.

وطبع في القاهرة سنة ١٩١٨ وفي بيروت عن دار الآفاق الجديدة د. ت وذلك تحت عنوان: «تاريخ دولة آل سلجوق».

١٢ ـ الفتح القسي في الفتح القدسي: وهو تاريخ الدولة الصلاحية من أول سنة ٥٨٣هـ إلى أواسط سنة ٥٨٩هـ بعد وفاة السلطان صلاح الدين. وقد ألّفه العماد قبل البرق الشامي وأشار إلى هذا وقال:

«... وقد أشرت إلى هذا المعنى في الكتاب الموسوم بالفتح القدسي وقرىء على السلطان منه ليلة ونحن بالقدس في سنة ٨٨هـ وسمع: «ولو ذخرت تلك الذخائر...» فقال السلطان: «هذه رفيعة على ثلاثة»...»[1]. وزاد في آخره الحوادث الجارية إلى أواسط سنة ٥٨٩هـ.

والقاضي الفاضل هو الذي أطلق على كتاب العماد هذه التسمية، فسماه الفتح القدسي نسبة إلى بيت المقدس، والفتح

= إرشاد الأريب ١٨/٧ رمضان ششن: مقدمة سنا البرق ص٢٠ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٦/٦.

(١) البنداري: سنا البرق الشامي ٢٣٣آ والمقدمة ص٢٠.

القسي نسبة إلى قس بن ساعدة الأنصاري[1] خطيب العرب في الجاهلية وكان قس إذ ذاك معروفاً بالسجع وقد جعل العماد كتابه هذا سجعاً من أوله إلى آخره، فآستحسن القاضي الفاضل هذه التسمية. وقصد منها أن الله فتح على العماد في سجعه هذا كما فتح على قس بن ساعدة من قبله السجع والبلاغة.

وكتاب الفتح القسي سجل لما قام به صلاح الدين من جهاد وحروب منذ سنة ٥٨٣هـ حتى سنة ٥٨٩هـ ضد الصليبيين، أي منذ السنة التي فتح بها بيت المقدس إلى السنة التي توفي فيها وما أعقب هذه الوفاة من أحداث. وقد تميزت هذه الفترة بمظهر الوحدة الكاملة للعالم الإسلامي الذي يقوده صلاح الدين ضد عدو البلاد، وبحدوث الضربة القاصمة له في حطين وما أعقبها من سقوط بيت المقدس في قبضته وسقوط كثير من البلدان والقلاع الصليبية التي كانت تعد مراكز هامة للفرنج في فلسطين والشام، ثم سقوط عكا ثانية في يد الفرنج، والصراع الذي كان بين صلاح الدين من جهة وفيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا من جهة أخرى، ذلك الصراع الذي أنتهى بمعاهدة الرملة سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٢م.

---

(١) هوقس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك من بني إياد، أحد حكماء العرب في الجاهلية وأسقف نجران، أول عربي خطب متكئاً على سيف أو عصا. وكتب من فلان إلى فلان وقال في كلامه «أما بعد» طالت حياته وأدرك النبيّ ﷺ قبل النبوّة ورآه في سوق عكاظ.
ـ الزركلي: الأعلام ٢/٧٩٥.

كما سجل طرفاً من صفات وسجايا صلاح الدين وما أعقب وفاته من تقسيم البلاد بين أولاده وذويه. ويشمل الكتاب كذلك الكتب والرسائل التي بعثها صلاح الدين إلى الخليفة ببغداد وإلى سائر الملوك والسلاطين المسلمين لاستنفارهم إلى الجهاد، أو وصف حالة الحرب، أو تبشيرهم بالنصر، أو غير ذلك من إنشاء العماد. كما أنه تبيان للعلاقات التي كانت قائمة بين مصر وغيرها من البلاد في هذه الفترة، ولذلك فهو وثيقة تاريخية هامة لعصر صلاح الدين، تضاف إلى الوثائق الأخرى مثل كتاب «سيرة صلاح الدين لابن شداد»[1] ومراسلات القاضي الفاضل.

ولما كان المؤلف أديباً واسع الأفق والثقافة، وكاتباً بليغاً صادق الحسّ، فقد استطاع في سرده للأحداث التاريخية، ووصفه للمعارك الحربية، أن يربط بينها وبين المسرح الجغرافي لهذه الأحداث، ربطاً امتاز بالدقة، وتجلت فيه مقدرته على إبراز الصورة الواضحة التي تكاد تنبض بالحياة، وتبين مواطن الضعف والقوة فيها، ومشاعر المحاربين في البر والبحر أثناءها. كما نجح نجاحاً كبيراً وفي وصف البقاع والبلدان والمنشآت التي تناولها. والحالة الاجتماعية التي عليها سكان البلاد.

وترجع أهمية الكتاب إلى أنه حديث من شاهد الأحداث

(١) أبو المحاسن يوسف بن رافع بن شداد بهاء الدين الحلبي. ولد بالموصل في العاشر من شهر رمضان سنة ٥٣٩هـ/١١٤٥م وتوفي سنة ٦٢٩ هـ/١٢٣١م له كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين. عنه.
ـ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٦/١١ ـ ١٣.

بنفســه أو وقف عليها أثنـاء عمله بديـوان الإنشاء، أو سمـع عنها فتحرى الدقة والتثبت فيما سمع.

وقد اتبع العماد في إيراد الأخبار نظام الحوليات الذي كان سائداً في عصره ولم يتعرض لترجمة الأعلام سواء كانوا علماء أو أرباب سيوف أو حكاماً إلاّ في النادر القليل.

وقـد اختار العمـاد الأسلوب الأدبي للكتاب ليكـون روضاً يعيش الأديب فيه ويطوف أرجاءه ويمشي في جنباتـه، يقطف من أزاهيره اليانعة وينهل من غدرانه، كما يجد فيه المؤرخ ضالته وفي ذلك يقول:

«وهذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون إلى الغرر المتجلية وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلى السير المتحلية، يـأخذ الفـريقان منـه على قدر القـرائـح والعقـول، ويكـون حظ المستخبر أن يسمع والأديب أن يقول، فإن فيه من الألفاظ ما صار معدناً من معادن الجوهر التي نولّدها، ومن غرائب الوقائع ما صار به لساناً من ألسنة العجائب التي نوردها»(١).

وقـد التـزم العماد فـي هـذا الكتـاب أسـلوب الكتـاب المنشئين في تأليفهم التاريخية، فقد عني كتاب العصر العبـاسي بحرفة الكتابة من ناحية قيامها على الزخرف والتنميق، وقد أخذت هذه العناية تزداد شيئاً فشيئاً على مر الزمن حتى برز مذهب أدبي أطلق عليه مذهب التصنيع. وهو مذهب كان يعتمد على السجع من

---

(١) العماد الأصفهاني: مقدمة الفتح القسي ص٤٣.

جهة والبديع من جهة أخرى. وكان أستاذ هذا المذهب ابن العميد[1] فهو الذي وسع لأول مرة طاقة الزخرف في تعبير النثر وتحبيره ثم أخذ هذا المذهب يتطور حتى أصبحت كتابة الكتّاب زركشة خالصة من تطريز بالسجع وترصيع بالبديع، وأزدادت هذه الحالة قوة حتى بلغت درجة الحدة في القرن الرابع الهجري. وقد آصطبغت أعمال الكتاب والأدباء بهذه الصبغة ولم يسلم منها أحد حتى كتاب التاريخ أنفسهم، إذ ظهر منهم من آختار هذا الأسلوب لنفسه، فطرز ما ساقه من أخبار بهذا الأسلوب وكان أول كتاب ظهر في هذا الثوب هو كتاب: «كتاب التاجي في أخبار بني بويه» للصابي. ثم تبعه «كتاب اليميني للعتبي». ولم يلتزم الكتاب هذا المذهب التزاماً تاماً بل أخذت تظهر على أساليبهم بوادر مذهب التصنّع وهو مذهب يقوم على تصعيب طرق الأداء وتعقيدها ضروباً مختلفة من التعقيد، ويعتبر أبو العلاء أبرز من حقق لهذا المذهب كل ما يمكن من صور التصعيب، ثم تبعه الكتاب حتى إذا أوفى القرن السادس الهجري نجد أن الكتاب في الأقاليم المختلفة قد غمرهم ذوق التصنع في

---

(١) هو أبو الفضل محمد ابن العميد أبي عبد الله الحسيني بن محمد الكاتب المعروف بابن العميد، والعميد لقب والده، لقبوه بذلك على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التعظيم. وكان فيه فضل وأدب وله ترسل. كان وزيراً لركن الدولة البويهي. سمي بالجاحظ الثاني وقال الثعالبي في اليتيمة: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد فيه وفي الصاحب ابن عباد وضع أبو حيان التوحيدي كتابه «مثالب الوزيرين».
ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٠٣ ـ ١١٢.

الكثير الأكثر وقلّما تركوا هذا الذوق إلى ذوق التصنيع[1] وعلى هذا التزم العماد في هذا الكتاب اللغة الفنية المصنوعة من ألف الكتاب إلى يائه، كما التزم السجع التزاماً لم يتخل عنه وأعتمد على الإكثار من أستعمال المحسنات البديعية واللفظية إلى درجة كبيرة ناهجاً نهج أصحاب مذهب التصنع هذا المذهب الذي ساد المشرق والأقاليم الإسلامية في القرن السادس الهجري، وكان العماد كغيره من أدباء عصره يعيش في الإطار الفني العام له، من أستعمال للمحسّنات البديعية واللفظية من تنظير وتشخيص وتورية وجناسات منقوصة وغير منقوصة وأقتباس من آي الذكر الحكيم وتضمين بديع لها، وبراعة في ذكرها في موضعها، وكذلك تضمين الشعر، كما أستخدم عناصر التصنع لمصطلحات العلوم والنحو ومراعاة النظير والطباق والجناس المقلوب، كما عني بالتشخيص والتصوير.

وفي خضم المذاهب الكتابية التي كانت سائدة، من تصنيع وتصنع، نشأ العماد وترعرع وأستوى عوده، وبلغ أشده ومنها نهل وأخذ، فلا غرابة أنه قد ألتزم مذهب التصنيع في الأغلب في كتابه الفتح القدسي وفي كتبه الأخرى وفي رسائله جميعاً، الأمر الذي جعل استخلاص الحقائق التاريخية منه أمراً صعباً ومهمة شاقة على بعض القراء. ولكن الصدق الذي امتازت به هذه المعلومات يجعلها تستحق ما يصرف في سبيل استخلاصها من عناء وجهد.

---

(١) للتوسع انظر.
- شوقي ضيف: النثر الفني ومذاهبه.

ويتحدث العماد في مقدمة كتاب الفتح القسي عن سبب اختياره سنة ٥٨٣هـ لتكون بداية الكتاب فيقول:

«وإنما بدأنا بالتاريخ به لاستقبال سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة لأن التواريخ معتادها إما أن تكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الأولى، وإما مستفتحة بمعقب من الدول الأخرى وأظهر الله على الأديان الدين القويم ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ متقدم، وجبّت الهجرة ما قبلها. وإن أرّخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الأولى وهذه الهجرة هي هجرة الإسلام إلى بيت المقدس وقائمها السلطان صلاح الدين. وهذه الهجرة أبقى الهجرتين وأبقى الكرتين»[١].

والفرق بين فتوح الشام في رأي العماد والفتوح الإسلامية الأولى فرق بيّن، تبين الخيط الأسود من الخيط الأبيض من الفجر، فإن الشام فتح والعهد بالرسول غير بعيد، والسلاح لم يكن بهذا التنوع والفخامة التي كان عليها أيام الفتح الصلاحي. هذا بالإضافة إلى أن فتح القدس بعد أن طغى عليها الكفر وانحسر عنها الإسلام.

وقد وصلنا هذا الكتاب وطبع عدة مرات أولها في لايدن سنة ١٨٨٧م عن نسخة مخطوطة بمكتبة لايدن كتبت بعد وفاة المؤلف بأربع سنين، وقوبلت نسخة لايدن بنسخة أخرى كانت من طرابلس. كما طبع في مصر سنة ١٣٢١هـ، وطبع ثانية سنة ١٣٢٢هـ، وهناك طبعة ثالثة سنة ١٩٦٥م بتحقيق محمد محمود صبح

(١) العماد الأصفهاني: الفتح القسي ص٤٢ ـ ٤٩.

صدرت عن الدار القومية للطباعة والنشر اعتماداً على إحدى النسخ المطبوعة في القاهرة بمطبعة الموسوعات عام ١٣٢١هـ ومقابلتها على نسخة ليدن ثم على نسخة مخطوطة بمكتبة الجامعة الأزهرية مؤرخة سنة ١١٦٦هـ بقلم عبد الله الأدكاوي وهي نسخة كاملة.

١٣ ـ عتبى الزمان في عقبى الحدثان في تاريخ الدولة الأيوبية من وفاة السلطان إلى آخر سنة ٥٩٢هـ. وهو ذيل على البرق الشامي، ويُذكر في آخر البرق، ولم يصل إلينا. ولكن نقل عنه أبو شامة مختارات في الروضتين (الجزء الثاني من الصفحة ٢٢٨ حتى ٢٣١) وقد اختصره البنداري في آخر المجلد الثاني من سنا البرق الشامي وصار مصدراً لكثير من المؤلفين[١].

١٤ ـ خطفة البارق وعطفة الشارق: ذكره أبو شامة وقال: إن العماد تحدث فيه عن الحوادث ما بين سنة ٥٩٣هـ وحتى وفاته[٢] كما ذكره ياقوت وقال إنه يتحدث عن اختلاف أولاد صلاح الدين بعد موته وما وقع من خلاف بين الأمراء ولم يصل الكتاب الينا وهو مفقود، وقد اختصره البنداري في آخر المجلد الثاني من سنا البرق الشامي ومنه مختارات في الروضتين ٢/٢٣٣، ٢٤٤. وصار مرجعاً لكثير من المؤلفين[٣].

---

(١) يذكر أبو شامة أنه رآه، كما يقول ياقوت أنه يسمى عتبى الزمان ـ أبو شامة: الروضتين ٢/٢٢٨ ياقوت: إرشاد الأريب ٧/٨٦.

(٢) أبو شامة: الروضتين ٢/٢٣٢ ياقوت: إرشاد الأريب ٧/٨٦.

(٣) رمضان ششن: مقدمة سنا البرق الشامي ص٢٢ ـ ٢٣.

١٥ ـ وقد أراد العماد تأليف كتاب في حياة القاضي الفاضل ونظمه ونثره، ولكنه توفي قبل إتمامه.

١٦ ـ البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، وهو مختصر في تاريخ الإسلام من المبعث إلى سنة ٥٩٣. وذيّله علم الدين سنجر المسروري الصالحي إلى سنة ٦٣٢هـ. ويذهب اليسييف إلى أن الكتاب ليس للعماد ولكنه لرجل تسمى بأسم العماد وكان قاضياً بحلب[١]. ولكن رمضان ششن لا يلتفت إلى هذا الاعتراض مؤكداً أنه وجد نصوصاً في البرق تسمى فيها العماد قاضياً. ويفسر اختلاف أسلوب الكتاب عن أسلوب العماد في الخريدة والبرق بأختلاف الموضوع[٢]. والكتاب مخطوط.

١٧ ـ نحلة الرحلة: ذكره أبو شامة أيضاً وقال ان العماد روى فيه نحواً من الأخبار التي أوردها في رسالة العتبى والعقبى، وتحدث عن آختلال الأمور بعد موت صلاح الدين[٣] كما ذكره ياقوت، وهو أيضاً ذيل على البرق الشامي. ولم يصل إلينا عدا قطعة منه في الروضتين ٢/٢٣١.

١٨ ـ البرق الشامي: وهو سجل الحوادث الواقعة في دولة نور الدين محمود بن زنكي والسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب من سنة ٥٦٣هـ إلى أوائل سنة ٥٨٩ في مصر وحواليها، والحوادث

---

(١) رمضان ششن: نفس المصدر والصفحة.

(٢) أبو شامة: الروضتين ٢/٢٣٣.

(٣) البنداري: سنا البرق الشامي ٢٢٧ب.

الواقعة باليمن بعد سنة ٥٦٩هـ. دون أن يهمل ذكر التغيرات الواقعة في مقام الخلافة وما حوله بسبب أهميتها المتعلقة بالمكاتبات ولكنه لا يذكر حركات الأيوبيين في أفريقيا الشمالية إلا في موضع واحد[1].

وفي خلال هذه الحوادث يذكر استطراداً التغيرات المتعلقة بشخصه ووفيات الرجال والعلماء. وفي بعض المواضع تكون هذه الاستطرادات مباحث مستقلة وقد رتب العماد كتابه على السنين، وبعد حكاية كل وقعة ينقل الوثائق الرسمية والأشعار المتعلقة بها، ويستطرد إلى مباحث متعلقة بشخصية نور الدين وصلاح الدين ومن حولهما من الرجال هكذا يقول في منهج تأليف الكتاب في المقدمة[2].

«وأنا أقدم في هذا الكتاب ذكر نبذ من أحوالي مع السلطان، ثم ابتدىء بذكر معرفتي به وخدمتي له وأصف مبادىء دولته إلى أن وصلت إلى الشام وحضرت خدمته، وأصف سيرته كل سنة وآتي في شرح حسناته بكل حسنة.. ثم ما وفى أحد بعهده وفائي بعهده من بعده، فإني سيّرت معاني معاليه بألفاظي الفاصلة، وخلّدت ذكره في مصنفاتي إلى قيام الساعة، وأحييت ذكره بالوفاء بعد الوفاة، وأهديت له حياة ثانية بعد الحياة».

كما ذكر في النص المنقول بعد المقدمة مجيئه من العراق إلى

---

(١) البنداري: سنا البرق الشامي ص٥٣.
(٢) البنداري: سنا البرق الشامي ص٥٥.

الشام وأسبابه والرجال الذين خدمهم في هذه الأيام، ونقل القصائد التي قدّمها إلى هؤلاء الرجال. ولا يبحث في كتابه عن الحوادث الواقعة قبل سنة ٥٦٣هـ إلا عن غزوتي أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر سنة تسع وخمسين واثنين وستين وخمسمائة.

بحث المؤلف في البرق عن عهد خدمته عند نور الدين وصلاح الدين فقط، وذكر في أوائل كتابه أنه دخل في خدمة نور الدين في أواخر سنة ٥٦٢هـ[1] وشاهد الوقائع والأمور بعده عند نور الدين وصلاح الدين بصفة كاتب السر، وكتب وثائقها الرسمية. ولهذا يمكن القول ان العماد لم يبحث في كتابه إلا عن الحوادث التي شاهدها وتتبعها جيداً. وإذا كان صحيحاً أنه لم يشهد بعض الوقائع والأمور ولكنه كتب وثائقها الرسمية بصفة كاتب الإنشاء.

وتجدر الإشارة إلى أن العماد ذكر في كتابه الحوادث الجارية بين سنوات ٥٦٣هـ - ٥٦٩هـ، وبين سنوات ٥٨٣هـ - ٥٨٩هـ مختصراً بالنسبة إلى حوادث سنوات ٥٧٠هـ - ٥٨٢هـ وسبب ذلك أن العماد كرّس كتابه لحياة صلاح الدين وسيرته كما ذكر في مقدمة الكتاب[2]. أما الحوادث الجارية بين سنوات ٥٦٣هـ - ٥٦٩هـ فهي تتعلق أكثر بحياة نور الدين، فيم الحوادث الجارية بين سنوات ٥٨٣هـ - ٥٨٩هـ فإنه بحثها قبل ذلك في كتابه الفتح القسي مفصلاً وأشار إلى هذا الخصوص في البرق فقال:

---

(١) البنداري: سنا البرق الشامي ص٥٥.

(٢) البنداري: سنا البرق الشامي ص٢٣٠ب.

«وقد وصفت في الكتاب الموسوم بالفتح القدسي الأحوال ووسعت ووشعت الأقوال وحلّيت الفتوح وأمليت الشرح. وأنا أورد في هذا الكتاب مما أوردته جملته الجميلة..»[1].

فأما حوادث سنوات ٥٧٠هـ ـ ٥٨٢هـ فقد أوردها مفصلاً مع الوثائق والأشعار التي تتعلق بها. هذه الوثائق مكتوبة بقلم القاضي الفاضل والعماد، إلاّ عدة مكاتبات لم يذكر كاتبها[2]. وأما الأشعار فهي للمؤلف ولشعراء شتى ذكر أسماءهم قبل كل شعر ونسب القصيدة إلى شاعرها.

ونحن نرى المؤلف أنه يفتتح عنواناً كبيراً لمجموع الحوادث المتسلسلة ويدرج فيها عناوين الوقائع المتعلقة به، كما نرى أيضاً في بعض المواضع من الكتاب أنه يذكر عنوان الحادثة ولا يحكيها، بل بنقل وثيقة تحتوي حكاية الواقعة، كما حدث في حكاية وصول أسطول صقلية إلى الإسكندرية في أوائل سنة ٥٧٠هـ. وينقل كثيراً بعد هذه الوثائق الرسمية الرسائل الأدبية والرسائل الخصوصية المكتوبة بينه وبين القاضي الفاضل وبين الرجال الآخرين[3] وفي بعض الرسائل المكتوبة من السلطان إلى الخليفة أو الولاة يلخص بعض الوقائع والجو السياسي[4].

وينقل العماد في كتابه كثيراً من المحادثات الجارية بين

---

(١) البنداري: سنا البرق الشامي ١٧٠ ـ ١٧٢.

(٢) البنداري: سنا البرق الشامي ١٦٨.

(٣) العماد الأصفهاني: البرق ٣/٣١ب ـ ١٠٣أ.

(٤) البنداري: سنا البرق ٢٠٣ب.

الأشخاص، أكثرها بأسلوبه وقليلها بالأسلوب العادي. ويقطع في بعض المواقع حكاية الوقعة ويستطرد في الحديث عن نفسه أو عن رجل سياسي أو عالم في زمانه. وإذا عاد بعد الاستطراد يقول:

«عاد الحديث» أو ما يشبهها. ويحكي وفاة رجل لـه أهمية بالدرجة الأولى أثناء حكاية الحوادث[1]. أما إذا نقل وفاة رجل له موقع ثان فيحكيها في أواخر حوادث السنة. ويمكن القول ان العماد لم يتبع في ترتيب الكتاب القواعد المألوفة بكل دقة، بل خرج عليها في بعض المـواضع وآستـطرد في الكلام كثيـراً وأدرج في هـذه الاستطرادات معلومات جديدة، ونقل الوثائق الرسمية والقصائـد المكتوبة ليؤكد المعلومات ويوضح الوقائع.

ألّف العماد كتـابه لكيلا تنقرض مفاخر صلاح الدين وليعطيه حياة ثانية بعد موته بذكر مناقبه ومفاخره وشبّه أيامه التي مضت عند نور الدين وصلاح الدين بالبرق الذي ومض ثم غاب سريعاً، ولأنه يحكي في الكتاب هذه الأيام سمّاه «البرق الشامي» تشبيهاً كأنها بـرق ومـض وطرف غمض، كمـا ذكره ابن خلكـان[2]. قال في المقدمة:

«وبعد فإن الكريم من عرف حق المنعم عليه وشكر فضـل المحسن إليه، وإذا خدم مخـدوماً أوجـد كرمـه بذكـره وإن صار معدوماً، وعَرف من سر عُـرْفه مـا كان مكتـوماً. ومن آستكفـاني

---

(١) البنداري: سنا البرق ٢٢ ـ ٢١.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٥٠.

للإنشاء لتنفيذ أوامره في حياته أكافيه بالأحياء في نشر مفاخره في مماته. وهو الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب رحمه الله، فإني صحبته فكان خير مصحوب، وخطبت ودّه فألفيته آلف مخطوب. ولما أنقضى عصره وانقضى عمره، خشيت أن ينقرض ذكره. فأنشأت هذا الكتاب وأعطيته من البلاغة خطاً، وأعرته من الفصاحة خطاً، وأفتكرت وأبتكرت صياغته معنى ولفظاً. وسميته «البرق الشامي» لأني وصلت في سنة اثنتين وستين وخمسمائة في دولة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي سقى الله عهده عهاد الرحمة، فصادفت الدولة في أيامه والأيام الصلاحية إلى السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين متناسبة المحاسن، وحسبتها بطيبها مستمرة، على حسنها مستقرة. ثم ألتفت فإذا هي كبرق ومض وطرف غمض وما أسرع ما انقضت وأنقرضت تلك الليالي والأيام، والشهور والأعوام»[١].

وقد أنتهى العماد من تأليف البرق الشامي في أوائل سنة ٥٩٥هـ على أبعد تقدير[٢].

وقد ذكر المؤلفون أن حجوم مجلدات الكتاب وذيوله تقع في سبعة مجلدات[٣] كما يذكر بروكلمان أن قطعة من الكتاب موجودة

(١) البنداري: سنا البرق (مقدمة العماد) ص٥٢.

(٢) يذكر أبو شامة في رسالة منقولة من خطفة البارق أرسلها القاضي الفاضل إلى العماد أوائل سنة ٥٩٥هـ يقول فيها: ... ونحن على انتظار البرق الشامي أن يمطر وحاش ذمة الوعد به أن يخفر.
ـ أبو شامة: الروضتين ٢/٢٣٤.

(٣) البنداري: سنا البرق «المقدمة» ٢٨ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/١٥٠.

في مكتبه الدراسات الشرقية في لينينغراد وإن كان الباحث رمضان ششن يذكر أن الموجود من الكتاب المجلدين الثالث والخامس فقط، وهما بمكتبة البودليان بأوكسفورد[1].

وأسلوب العماد في كتاب البرق هو نفس أسلوبه في الفتح القسي، إذ نراه يستعمل كل الصنائع البديعية المجانسة والمشاكلة والتطبيق والترصيع والموازنة والتعقيد. وتظهر صنعة التعقيد في كل الفصول حتى في عناوينها. والكتاب مملوء بالسجع والجناس ويختار العماد في بعض المواقع كلمات طنانة رنانة يستعملها في الجمل المتتابعة المسجوعة لتقع لطيفة في السمع. وتتسلسل هذه الجمل في الفصول التوصيفيّة ويظهر التكلف والتصنع في الأسلوب، لهذا نرى بعض الفصول كأنه ميدان فصاحة وبلاغة، ويترك حكاية الواقعة ويخوض في التوصيفات الأدبية، ويكون فهم هذه المواضع صعباً. وفي بعض المواضع تكون هذه الأوصاف شعراً حماسياً.

وبسبب كثرة الصناعات الأدبية والتوصيفات لا تظهر للقارىء المواد التاريخية واضحة بل تستتر تحتها. ولهذه الصعوبة اختار

---

(١) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٦/٧ رمضان ششن: مقدمة سنا البرق ص٢٨ وفي العدد الخامس من نشرة أخبار التراث العربي الصادرة عن معهد المخطوطات العربية لشهري كانون الثاني وشباط ١٩٨٣ ورد أن مؤسسة عبد الحميد شومان تموّل مشروعاً لتحقيق مخطوطة البرق الشامي يشرف عليه الدكتور عبد العزيز الدوري وعدنان البخيت ود. مصطفى الحياري عن الجامعة الأردنية. ولا نعلم فيم إذا أنجز المشروع أم لا.

البنداري مختصر الكتاب، وغيرهما من المؤرخين المواد التاريخية من المواد الأدبية، ولم يهملوا المواد التاريخية إلّا نادراً. ولكنهم أهملوا الوثائق الرسمية في كثير من المواضع وآقتصروا في نقلها ويقول البنداري في أسلوب «البرق الشامي[1]»:

نظرت في الكتاب الموسوم بالبرق الشامي للإمام السعيد عماد الدين الكاتب الأصفهاني فوجدت غمائمه تتدفق بأنواء الفوائد، وكمائمه تتفتق من أنواء الفرائد، يحتوي من البلاغة على أبكارها وعونها، ويشتمل من البراعة على غُرَرِها وعيونها. فيه من السير السلطانية الناصرية والعادلية وسائر الدوحة الكريمة الأيوبية ما لا ينطبق على مثله كثير من الكتب المصنفة في التواريخ والسير القديمة منها والحديثة. ولكني وجدت دُرر مقاصده مكنونة في بحار أسجاعه المتلاطمة الأمواج ورأيت غرر فوائده مغمورة في غمار أوصافه المتتابعة الأفواج، ما بين قرائن تشابكت قرون لواحقها في أصلاء سوابقها، وأفانين تشاجرت فنون أغصانها في أرجاء حدائقها...».

ومع هذا فليس كل الكتاب على أسلوب واحد بسبب احتوائه الوثائق المكتوبة بأقلام مختلفة، والمحاورات الجارية بين الرجال المختلفين، ولكن علينا أن لا نهمل هنا نقطة مهمة وهي أن التوصيفات الواردة في الكتاب إن كانت تظهر كأنها زوائد، إلّا أنها في حقيقة الأمر تعطي النص حيوية وجواً حماسياً.

(١) سنا البرق الشامي؛ مقدمة البنداري ص ٥٠.

وللبرق الشامي، كما للفتح القسي قيمة تاريخية وأدبية كبرى، لأن العماد آختار موضوعاً لكتابيه أيام زمانه والبلاد التي عاش فيها وما حولها، إلاّ النصف الأول من نصرة الفطرة وعصرة الفطرة. ولهذا السبب لم يراجع كتب السابقين إلاّ نادراً كما وقع في خريدة القصر والنصف الأول من نصرة الفطرة؛ بل أعتمد مشاهدته وقيوده والوثائق الرسمية التي كتبت حين وقوع الحادثة. ولهذا نعد كتبه مصادر أصلية لما تحتويه من الحوادث.

بحث العماد عن الوقائع التاريخية التي شاهدها أو تأثر بها من أول حياته إلى آخر سنة ٥٦٢هـ في نصرة الفطرة. ونقل الحوادث الجارية من أول سنة ٥٦٣هـ إلى أوائل سنة ٥٨٩هـ في البرق الشامي، والحوادث الجارية من أول سنة ٥٨٣هـ إلى أوائل سنة ٥٨٩هـ في الفتح القدسي وذكر الحوادث الواقعة من أواسط سنة ٥٨٩هـ إلى أول رمضان سنة ٥٩٧هـ في عتبى الزمان ونحلة الرحلة وخطفة البارق. وذكر أيضاً بعض الوقائع في أثناء خريدة القصر وجريدة العصر.

وبالمقارنة مع المصادر التي وصلت إلينا في سيرة صلاح الدين[1] لا يوجد بين مؤلفيها رجل شاهد وقائع صلاح الدين وسيرته مثل العماد الذي لازم السلطان في غدواته وروحاته بآستثناء وقعة الرملة ٥٧٣هـ وفتح عسقلان ومحاصرة القدس سنة ٥٨٣هـ. ولا

(١) أهم الكتب التي تناولت سيرة صلاح الدين.
ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢هـ.
ـ الكامل في التاريخ لعز الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ. =

ينقل العماد المواد التاريخية جافة مجردة بل يؤيدها ويشرح أسبابها بالوثائق التي أوردها وينقل إلينا مذاكرات الصلح والمناسبات السياسية إلى أدق فروعها[1]. ويشرح أيضاً ما وقع من العزل والتعيين في الوظائف المهمة، ويشرح الشروط التي يجب أن يتصف بها الموظف وينقل المطالعات الرسمية في هذا التعيين.

والنقطة المهمة التي يتصف بها الكتاب هي كثرة الوثائق الرسمية فيه والتي لا تختص بالحوادث العسكرية فقط بل تشرح في كثير منها العلاقات السياسية بين السلطان والخليفة والولاة والعلاقات الاجتماعية. وهذه الوثائق هي نماذج الوثائق المتداولة في هذا العهد بين السياسيين وأرباب المناصب والعلماء. كما يطلعنا على كثير من الاصطلاحات الإدارية والمعمارية في عهدي نور الدين وصلاح الدين. وهو أيضاً معرض للنثر الأدبي في عصره بما يحتويه من الوثائق والرسائل الأدبية للكتاب المشهورين. وبكلمة يعتبر البرق الشامي وكذلك الفتح القسي أوثق مصدرين في سيرة نور الدين وصلاح الدين والحوادث الجارية في دولتيهما وهو يبين لنا إستراتيجيتهما ضد الصليبيين بكل وضوح سنا البرق الشامي.

ـ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير أيضاً ويدخل فيه الحوادث المتعلقة بحياة صلاح الدين بنسبة علاقاتها بتاريخ الأتابكية.

ـ كنز الموحدين لابن أبي طيّ الحلبي وهو مفقود وإن كنا نستفيد منه عن طريق أبي شامة وغيره من المؤرخين المتأخرين.

(١) العماد الأصفهاني: سنا البرق ٢٠٨ب و٢١٦أ ـ ب.

اختصر قوام الدين الفتح بن علي البنداري الأصفهاني (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) كتاب البرق الشامي مع ذيليه، عتبى الزمان وخطفة البارق سنة ٦٢٢هـ للسلطان الملك المعظم أبي الفتح عيسى ابن الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب، وانتخب بعد البرق الشامي سنة ٦٢٣هـ نصرة الفطرة وعصرة الفطرة.

وقد اختار البنداري من نص الكتاب المعلومات التاريخية ولم يغيّر من لفظه شيئاً وأخرج من المتن التوصيفات الأدبية والوثائق الرسمية والرسائل والقصائد الأدبية إلّا بعض الكلمات الفاضلية والعمادية وبعض الأبيات الساطعة كما أنه لم يزد على النص إلّا تعليقات قليلة. وقال في منهج اختصاره في المقدمة:

«فشذّبت شجراتها وأدنيت جنا جناتها لقاطفيها وجُناتها. . . ولم أحُم من الكتب المنشأة في الوقائع المذكورة إلّا حول جهة من الكلم الجليلة الفاضلية ونبذ من الكتب البديعة العمادية سالكاً مسالك الاختصار وناهجاً منهج الاقتصار»[1].

وقد عثر الدكتور رمضان ششن على المجلد الأول بين مخطوطات أسعد أفندي في تركيا وهو يحوي حوادث سنوات ٥٦٣هـ - ٥٨٣هـ، أي من أول البرق إلى أوائل المجلد السابع. أما المجلد الثاني الذي يحوي حوادث سنوات ٥٨٤هـ - ٥٩٧هـ فهو مجهول الآن. وقد حقق الدكتور ششن القسم الأول من المجلد الأول وصدر عن دار الكتاب الجديد في بيروت سنة ١٩٧١م.

---

(١) البنداري: سنا البرق الشامي «مقدمة البنداري» ص٥٠.

الفصل الثاني
عصر العماد الأصفهاني

١ ـ الاستجابة الإسلامية للعدوان الصليبي:

عاش العماد الأصفهاني في فترة كانت المواجهة الإسلامية للعدوان الصليبي تشهد أعنف فصولها. هذه المواجهة لم تكن مجرد صدام عسكري وإنما في جوهرها كانت صداماً بين حضارتين وقد خلف هذا التحدي الحضاري الذي فرضه العدوان الصليبي على المنطقة العربية استجابات تجلت في عدة مستويات سياسية وعسكرية، واقتصادية واجتماعية وثقافية، تفاعلت جميعها على نحو يصعب الفصل بينها بشكل حاسم.

وقد برزت الاستجابة السياسية للتحدي الصليبي في الحقيقة القائلة أن نموذج دولة الخلافة قد انتهى عملياً في خضم الصراع ضد الفرنج. على الرغم من بقاء الخلافة تلعب دور الرمز الديني والواجهة الشرعية. ومع التسلم بأن عوامل التدهور والانحلال كانت تنخر في بنيان دولة الخلافة منذ فترة قبل الحروب الصليبية، فإن حقائق المواجهة العسكرية السياسية كرست نموذج الدولة العسكرية التي يقودها ملك محارب بدلاً من الدولة التي يقودها خليفة لا يتمتع بأية سلطة حقيقية مثلما كان

حال كل من الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في القاهرة عندما وطأت قوات الصليبيين أرض المنطقة العربية ومن ناحية أخرى فإن أول ما يلفت النظر في تاريخ الحروب الصليبية هو ذلك التشرذم السياسي والتفرق والتنازع التي سادت المنطقة قبل قدوم الحملة الأولى وبعدها بحوالى نصف قرن من الزمن، أدرك بعدها العالم العربي والإسلامي أن مؤسساته السياسية القائمة، سواء كانت ممثلة في نظام الخلافة أو في الإمارات والدويلات التي مزقت بلاد الشام والجزيرة عشية الحروب الصليبية، غير قادرة على قيادته سياسياً وعسكرياً في مواجهة الهجوم الصليبي الاستيطاني. وأدان الرأي العام تخاذل الخليفة العباسي عندما توجه إليه عدد من أهل الشام بصحبة القاضي أبي سعد الهروي بعد سقوط القدس بأيدي الصليبيين(١) وذلك سنة

(١) عبر أبو المظفر الأبيوردي عن سلبية الخلافة العباسية واعتماد المسلمين على البكاء والنواح بأبيات منها:

وشر سلاح المرء دمع يفيضه
إذا الحرب شبّت نارها بالصوارم
فيا أيها بني الإسلام إن وراءكم
وقائع تلحق الذرى بالمناسم
وكيف تنام العين ملء جفونها
على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام أضحى مقيلهم
ظهور المذاكي أو بطون القشاعم

ابن الجوزي: المنتظم في أخبار الملوك ١٠٨/٩ وكذلك ترجمة الأبيوردي في وفيات الأعيان ٧١/٤. =

٤٩٢هـ/١٠٩٩م. كما راعهم موقف الخلافة الفاطمية التي انتهزت فرصة التوغل الصليبي في شمال الشام، وأرسلت سفارة إليهم، وهم امام أنطاكية، تفاوضهم من أجل اقتسام النفوذ والسيطرة على حساب السلاجقة(١). أما موقف الأمراء الصغار من حكام المدن والإمارات الصغيرة في بلاد الشام فكان أكثر سوءاً بطبيعة الحال. ولم يكن هذا كله سوى تعبير واقعي عن ميراث قرن من الحروب المتبادلة والشك والحقد والمرارة التي نجمت عن التشرذم السياسي في المنطقة العربية حقيقة ان الخلافة الفاطمية (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م) هي التي سقطت في غمرة الحروب والصراع ضد الصليبيين، ولكن الخلافة العباسية كانت هي الأخرى قد تضاءلت في قيمتها السياسية ودورها التاريخي حتى أضحت مجرد رمز عاطفي يدل على ماضي التاريخ المجيد، ورمزاً دينياً عاطفياً يشير إلى عظمة الأيام الخوالي، وواجهة شرعية تستمد منها الدول العسكرية التي قامت لتقود الصراع ضد الصليبيين(٢).

كانت الخلافة العباسية قد بدأت منحنى التدهور والأفول قبل قدوم الحملة الصليبية الأولى بزمن طويل. بيد أن النتائج

= - ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٨٩/٨ ابن الجوزي: مرآة الزمان حوادث سنة ٤٩٢هـ.

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٦٨/٨ عبد المنعم ماجد: الناصر صلاح الدين الأيوبي ص٣٠. قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية١٨٣ سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى١٧١.

(٢) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية ١٨٤.

السياسية لضعف الخلافة العباسية لم تصبح واضحة إلاّ في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. ففي سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) نجح الفاطميون في انتزاع مصر من الخلافة العباسية. ولم يلبثوا أن أخذوا يتوسعون على حسابها. ولا سيما في فلسطين وبلاد الشام. وهكذا قامت خلافة شيعية في القاهرة لتنافس الخلافة السنية في بغداد. وما لبث أن بلغ النزاع ذروته عندما قام أبو الحارث البساسيري[١] بانقلاب داخل بغداد لصالح الخلافة الفاطمية وأقام الخطبة للمستنصر الفاطمي على حين اعتقل الخليفة القائم العباسي. واستنجد الخليفة العباسي بالقائد السلجوقي طغرلبك الذي دخل بغداد سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) ثم تمكن من القضاء على البساسيري بعد فترة من الوقت[٢]. وبذلك صار الخليفة مجرد رمز وواجهة شرعية فيما أصبح السلطان السلجوقي هو الحاكم الفعلي في تلك الأنحاء التي امتدت فيما بين خراسان وبلاد الشام.

---

(١) انتهز البساسيري فرحة خروج طغرلبك السلجوقي من بغداد إلى شمال العراق ليخضع تمرداً قام به أخوه إبراهيم فهاجم بغداد واستولى عليها وأجبر الخليفة العباسي القاسم على إصدار عهد يعترف فيه بعدم أحقية بني العباس في الخلافة مع وجود الفاطميين.
- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/١٢؛٥٦.

(٢) المقريزي: إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ٢/٢٣٢ - ٢٣٤ ويعلق على هذا بقوله: «... وهذه الحادثة كانت آخر سعادة الدولة الفاطمية، فإن الشام خرجت من أيديهم بعد قليل لاستيلاء الترك عليها. ولم يبق بيدهم غير مصر».
- ابن ميسر: أخبار مصر ٢/٨ (نشره هنري ماسيه القاهرة١٩١٩م).

وقد اكتسبت الدولة السلجوقية حيوية عسكرية دافقة جعلتها تتوسع منذ وقت مبكر شمالاً وغرباً على حساب كل من الأرمن والبيزنطيين. ثم الفاطميين الذين فقدوا أملاكهم كلها في بلاد الشام تحت وطأة الهجوم السلجوقي. بيد أن الانقسام ما لبث أن نشب بين الدول والإمارات السلجوقية[١] التي قامت نتيجة توسعاتهم الباكرة. وحين قدم الصليبيون إلى المنطقة فشل السلاجقة في توحيد جهودهم إزاء الهجوم الصليبي.

وكان ضياع نيقية وإنطاكية والرها وغيرها من بين أيديهم[٢] مؤشراً على فشلهم في عمل موحد، ودليلاً على أن تراث الفرقة والتشرذم الذي ساد فترة طويلة قبل قدوم الصليبيين كان لا يزال يعوق أي عمل وحدوي على الرغم من أن الطابع العسكري للدول والإمارات السلجوقية شكل الأساس الذي قامت عليه

---

(١) جاء وفاة ملكشاه آخر سلاطين السلاجقة العظام إيذاناً بتفكك أمبراطورية السلاجقة إذ انقسمت دولته بين أولاده الأربعة، بركياروق ومحمود ومحمد وسنجر فتنافسوا ومن بعدهم أولادهم على السيطرة على الخليفة العباسي. كما تنافس ابنا أخيه تتش وهما رضوان ودقاق في الشام، وكذلك أعمامه وأبناؤهم في ولايات المشرق . . .
ـ عماد الدين الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق١٧ ـ ٣٠ ابن الأثير: الكامل٨/١٨٤.

(٢) استسلمت نيقية لقوات الأمبراطور البيزنطي في ١٩ تموز ١٠٩٧ خوفاً من وحشية الصليبيين فيما احتل بلدوين دي بويون الرها وأسس إدارة له في نهاية تشرين الأول١٠٩٧. بينما سقطت أنطاكية أواخر سنة ١٠٩٨ حيث أسس بوهيمند فيها إمارة خاصة به.
ـ أرنست باركر: الحروب الصليبية ص ٣٣ ـ ٣٤.

الدول العسكرية الكبرى فيما بعد مثل الدولة الزنكية والدولة الأيوبية.

أما الخلافة الفاطمية في القاهرة فقد كانت أحوالها الداخلية تنبيء عن أن الخلفاء لم يعد لهم من الأمر شيء. وأن الخلافة صارت تحت حكم الوزراء الذين اغتصبوا السلطة لأنفسهم على حساب الخلفاء الضعفاء. وقد ذكر المقريزي أن بداية ضعف الخلافة الفاطمية يرجع إلى الاشتباكات بين الأتراك والجنود السود سنة ٤٥٤هـ[١]. وعلى أي حال كان الأفضل بن بدر الجمالي هو صاحب السلطة الفعلية عندما جاءت جيوش الفرنج إلى المنطقة ولم يعد للخلفاء من شيء سوى لقب الخليفة الفارغ من أي معنى[٢]. وكان هذا يعني، في التحليل الأخير، ان دولة

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢/٢٦٥ ـ ٢٦٧.

(٢) هناك روايات عديدة في المصادر التاريخية تحكي عن تعاظم قوة الوزراء على حساب الخلفاء الفاطميين. ففي حديثه عن الخليفة الحافظ ذكر ابن الأثير أن وزيره أحمد بن الأفضل كان صاحب السلطة «وبقي الحافظ اسم لا معنى تحته». كما يذكر المقريزي كيفية جلوس المستعلي على عرش الخلافة الفاطمية «وذلك أن الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي عندما مات المستنصر بادر إلى القصر وأجلسه ولقبه بالمستعلي. وبعث فأحضر إليه نزاراً وعبد الله وإسماعيل فأمرهم الأفضل بتقبيل الأرض».

ـ ابن الأثير: الكامل ٨/٢٣٢ ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق٢٢٨ ـ ٢٢٩.

ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا٣/١١ قاسم عبده قاسم: الحروب الصليبية ص٢٢٨.

الخلافة الفاطمية فقدت دورها التاريخي أيضاً وقد جاءت أحداث الحملة الصليبية الأولى وما تلاها لكي تؤكد أن نموذج الدولة التي يحكمها خليفة ليس له من الأمر شيء قد أصبح في ذمة التاريخ.

وقد تجسد الفشل السياسي الأكبر للفاطميين في موقفهم. من الصليبيين إذ ان استئثار الوزراء بالسلطة من دون الخلفاء، ثم تعاظم الصراع على منصب الوزارة، أدى إلى نتيجتين غاية في السوء، سياسياً وعسكرياً. فقد فشل الأفضل في إدراك حقيقة الخطر الصليبي كما أن اغتياله سنة ٥١٥هـ/١١٢١م[١] جعل مصر تدخل في دوامة من المؤامرات والاغتيالات في سبيل كرسي الوزارة. وفي ذروة الصراع بين شاور وضرغام على هذا المنصب استنجد الأول بنور الدين وقوات المسلمين فيما استنجد الثاني بالصليبيين. وكانت المحصلة النهائية أن سقطت الخلافة الفاطمية وحلت محلها الدولة الأيوبية التي شادها صلاح الدين الأيوبي على أسس عسكرية محضة، رغم تمسكه بالتبعية الشكلية للخلافة العباسية الواهنة في بغداد.

بيد أن العالم الإسلامي بدأ يشهد ظاهرة إيجابية جاءت هذه المرة من بين جماهير الناس العاديين، إذ تشكل رأي عام قوي وضاغط بدأ يتساءل عن سبب تخاذل الحكام وأنانيتهم وضيق

---

(١) اغتال الخليفة الآمر الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي بأن دسّ له السم فقتله وذلك كي يسترجع نفوذه الضائع من هذا الوزير المستبد.
- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٢٤٨.

أفقهم الذي ضيّع البلاد وأذل العباد[1] وأخذ الفقهاء والعلماء يخطبون من فوق منابر المساجد في فضل القدس الشريف وفضل الجهاد والمجاهدين ولم تكن حلقات الدروس تخلو من حديث حول القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين. كما دبجت الكتب والرسائل التي تتناول هذا الموضوع بشكل أو بآخر. ومن ناحية أخرى أثارت أعداد اللاجئين الهاربين من مذابح الفرنج الشهيرة مشاعر الاستياء والغضب في كل مكان ذهبوا إليه. لقد أدرك المسلمون متأخرين أن الصليبيين وفدوا إلى بلادهم بقصد البقاء وكانت تلك صدمة نفسية مؤلمة.

وبدأت الدعوة إلى الجهاد تسري بين الناس في العالمين الغربي والإسلامي بسرعة كبيرة بحيث عمت سائر المناطق. وسرعان ما تحولت إلى حركة رأي عام ضاغطة يقودها أصحاب الرأي والمفكرون. وفي رحم هذه الحركة القوية تبلورت اتجاهات المقاومة العربية الإسلامية ضد الصليبيين وبدأت محاولات جدية لتوحيد الجهود في هذا الصدد. فقد انتهز مودود[2]

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/١٨٩.

(٢) هو الأمير مودود بن التونكين صاحب الموصل وأحد أمراء السلطان محمد بن ملكشاه، اشترك في حرب الفرنجة في طبرية سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م). وثب عليه باطني وحزبه بسكين وهو يتمشى مع طغتكين بعد أن صلى الجمعة في الجامع الأموي. وقيل ان طغتكين خافه فوضع عليه من قتله.

ـ أبو شامة: الروضتين ١/٦٨ ـ ٦٩ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٢/٢٢٦. =

أتابك[1] الموصل فرحة استنجاد طغتكين[2] به، فجمع جيشاً كبيراً لمهاجمة الصليبيين في فلسطين. ففي سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) تقدمت جيوشه مع جيوش أمير سنجار وطغتكين أمير دمشق، والأمير أياز بن إيلغازي[3] صوب فلسطين. وبالقرب من طبرية تم تدمير الجيش الصليبي[4] بيد أن اغتيال مودود على يد أحد الباطنية في آخر يوم جمعة من شهر ربيع الثاني من هذه السنة (تشرين الأول ١١١١م) خفّف من وطأة الهجوم الإسلامي على

= ـ ابن الأثير: الكامل ٢٦٦/٨ ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٠٧/٥.

(١) الأتابك لفظ تركي من مقطعين هما «أتا» بمعنى أب وبك بمعنى أمير. وكان السلاجقة منذ أيام ملكشاه يطلقونه على كبير أمرائهم، يولونه الوصاية على أمير قاصر من بعدهم، وكثيراً ما يتزوج من أم الموصى به فتصبح العلاقة بين السلطان ووصيه شبه أبوية. وقد انتهز الأتابكة فرصة ضعف الدولة السلجوقية فاستقلوا بولاياتهم.

ـ القلقشندي: صبح الأعشى ١٨/٤ المقريزي: السلوك ١٤٦/١ حاشية١.

ـ أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي١٩٧ رشيد الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل٢٨.

(٢) هو الأتابك ظهير الدين أبو منصور طغتكين كان من أمراء تتش السلجوقي ثم صار أتابك ابنه دقاق وبعدها تملك دمشق، توفي في صفر سنة ٥٢٤هـ/١١٢٢م.

(٣) هو إياز بن إيلغازي بن أرتق صاحب ميافارقين توفي سنة ٥٠٨هـ.

ـ زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ٣٤٧/٢.

(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ١٨٧ ـ ١٩١.

جبهة الشمال[١]. لكن البعث الذي شهدته المنطقة لمبدأ الجهاد لم يتوقف مما جعل الأحداث تتصاعد في جبهة حلب ـ الموصل، كما زادت محاولات توحيد الجهود جدية. وفي ظل هذا البعث العقائدي ظهر عماد الدين زنكي بن آقسنقر[٢] الذي دانت له الموصل سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م ليقود حركة الجهاد والمقاومة العربية الإسلامية التي بدأها مودود قبله. وما لبث أن أصبح أقوى حاكم مسلم في زمانه لأنه طوع قوته وموارده العسكرية لخدمة المطلب العربي الإسلامي العام المتمثل بالجهاد ضد الصليبيين ومن دولته الصغيرة بالموصل بدأ عماد الدين زنكي يعمل لتحقيق هدف مزدوج: توحيد الجهود الإسلامية وطرد الصليبيين وهي السياسة التي سوف يتبعها خلفاؤه الأيوبيون وعندما استولى على حلب سنة ٥٢٣/١١٢٨م[٣] بدأ العمل العسكري ضد الصليبيين على محور الموصل ـ حلب يحقق تقدماً في الضغط على الصليبيين في الرها وأنطاكية وشمال الشام.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/٣٢٣ ـ ٣٢٤ أبو شامة: الروضتين ١/٧٥ ـ ٧٦.

(٢) هو قسيم الدولة أبو الفتح آقسنقر مملوك السلطان ملكشاه، ولي حلب وأعمالها، قتل عند تل السلطان سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م وهو يقاتل تاج الدولة تتش عند تل السلطان قرب حلب.

ـ أبو شامة: الروضتين ٧٥ ـ ٧٦ الصفدي: الوافي بالوفيات: ٩/٣٠٩.

(٣) حصل عماد الدين على منشور بها من السلطان محمود بن ملكشاه على اعتبار أنها كانت في حوزة أبيه قبل أن يقتل.

ـ أبو شامة: الروضتين ١/٧٥ ـ ٧٦ حسن حبشي: نور الدين والصليبيين ٢٣ ـ ٢٤.

وعندما توجهت جهود عماد الدين باستعادة الرها من الصليبيين سنة ٥٣٩/١١٤٤م[١] كان ذلك نذير شؤم للصليبيين إذ كانت أول إمارة أقاموها على أرض المشرق الإسلامي وأول إمارة يخسرونها في حرب الاسترداد الإسلامية وعلى الجانب العربي الإسلامي كان نجاح المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي تعزيزاً لجهود التوحيد العربية الإسلامية من جهة وتدعيماً له في مواجهة النعرات الانعزالية من جهة ثانية، وعلى المستوى العسكري كان سقوط الرها بيد المسلمين كسباً كبيراً لأنه جعل وادي الفرات كله منطقة إسلامية، كما ضمن للمسلمين السيطرة على طرق المواصلات التي تربط بلاد الشام والعراق والجزيرة. وبعد مصرع عماد الدين زنكي على يد بعض خدمه غيلة سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م[١] تابع نور الدين بن زنكي انتصارات أبيه التي أحرزها للمسلمين فانتزع دمشق من أيدي السلاجقة سنة ٥٤٦هـ/١١٥٤م وأسس له ملكاً مستقلاً من دمشق عبر حلب إلى الموصل. وكانت هذه

---

(١) عن سقوط الرها انظر
- ابن الأثير: الكامل ٨/٩ ـ ٩ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٢٧٩ ـ ٢٨٠.
- أبو شامة: الروضتين ١/٩٤ ـ ٩٥ أرنست باركر: الحروب الصليبية٧٢.

(٢) قتله خادم له يدعى برنقش أو برنقش وأصله إفرنجي ثم هرب إلى قلعة دوسر والتجأ إلى صاحبها الأمير عز الدين علي بن مالك بن سالم العقيلي.
- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٢٨٤ ـ ٢٨٨ ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية ١٣٥ ـ ١٣٦.
- ابن واصل: مفرج الكروب١/٩٩ أبو شامة: الروضتين ١/٤٢.
Encyc. de L'Isl. Art (Zingi) t4 P. 1294 - 95.

الدولة مستقلة بالفعل ولكنها تعترف بسلطة العباسيين الإسلامية. وبسقوط دمشق زال آخر حاجز كان يحول بين المنطقة الزنكية وبين المملكة اللاتينية في بيت المقدس وخلف صلاح الدين الأيوبي، نورِ الدين في الزعامة والدفاع عن الإسلام. وينبغي اعتبار صلاح الدين من جميع الوجوه أعظم الأبطال الذين حاربوا الصليبيين، علماً أنه ظهر في الطور الثالث من الحملات التي شنّها المسلمون. ويشهد على تقدمه ونبله، كرجل وبطل، سواء كان ذلك في الحرب أم في السلم، الأصدقاء والأعداء. ومع أن النسيان عفّى ذكرى عدد كبير من أبطال المسلمين، فما زال الزمن يضفي على ذكرى صلاح الدين شرفاً على شرف ونبلاً على نبل(١).

وصلاح الدين يوسف الأيوبي عربي النشأة والولاء، كردي الأرومة، لذا أطلق على الدولة الأيوبية فيما بعد تسمية دولة

---

(١) عن حياة صلاح الدين وسيرته.
- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين (ت. جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٦٤).
- العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي (ت. محمد محمود صبح القاهرة ١٩٦٥).
- أبو شامة: الروضتين ١/١٦٤ - ٢٧٩ و٢/١ - ٢٤٥.
- المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٤١ - ١١٤.
- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥/٣٨١ - ٣٨٩.

وهناك دراسات عديدة بالعربية وباللغات الأجنبية عن صلاح الدين.

الأكراد[١]. وقد اختلفت المصادر في تعيين المكان الذي وفدت منه هذه الأسرة فجعلته الموصل تارة أو دوين في أرمينية تارة أخرى، إلاّ أنها أجمعت على هجرتها من موطنها الأصلي إلى العراق. حيث هاجر جدّها شادي إلى بغداد، التي كان يسيطر عليها السلاجقة. وقد تداخل مع أمرائهم ورجال دولتهم بقوة شخصيته فمنحوه حكم قلعة تكريت الواقعة على الضفة اليمنى لنهر دجلة حيث يبدو أن أغلب سكانها كانوا من الأكراد وبعد موت شادي أصبح ابنه نجم الدين، الذي كان يعمل في خدمة السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي[٢] وريثه فيها حيث عين دزداراً أو حافظاً لقلعتها وعاونه في حكمها أخوه الأصغر أسد الدين شيركوه. وفي تكريت هذه ولد لنجم الدين أيوب ابنه صلاح الدين يوسف عام٥٣٢هـ/١١٣٢م. ولما ولي السلطان غياث الدين مسعود السلجوقي (٥٢٧هـ ـ ٥٤٧هـ) اقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بهروز الخادم، شحنة بغداد[٣]، فأقرّ بهروز نجم الدين في

(١) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ١/٦٩.
- Encyc. de L'Isl.: Art (Kurdes) t2 P1204

(٢) هو السلطان محمد بن ملكشاه بن عضد الدولة ألب أرسلان السلجوقي ٤٧٤ ـ ٥١٧هـ (١٠٨١ ـ ١١٢٣م).
ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/٧٣ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٢١٣ ـ ٢١٤.

(٣) الشحنة في الأصل ما يقدم للدواب من العلف الذي يكفيها يومها وليلتها. وشحنة البلد هو من كان فيه الكفاية لضبط البلد من جهة السلطان ويقال الشحكنية أيضاً.
ـ ابن شداد: النوادر السلطانية ص٧٣ حاشية٦.

ولاية تكريت كما أضاف إليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له.

وحدثت ظروف ربطت مصير الأيوبيين بآتابك الجزيرة عماد الدين زنكي. وعلى كل لا يمكن التكهن بما كانت ستكون عليه أحوال هذه الأسرة لو لم تتصل بآل زنكي وتربط مصيرها بعجلتهم. وترجع علاقة الأيوبيين بآل زنكي إلى سنة٥٢٦هـ. وهي السنة التي انهزم فيها عماد الدين زنكي أمام جيوش الخليفة العباسي المسترشد بالله(١) وكانت بقيادة قراجا الساقي أتابك سلجوق بن محمود صاحب فارس. وقد استضاف نجم الدين أيوب عماد الدين متحدياً بذلك الخليفة. وما لبثت الأمور أن عادت إلى نصابها بين عماد الدين والخليفة، فيما توثقت العلاقات من ناحية أخرى بين آل زنكي وآل أيوب.

واضطر الأيوبيون أن يتركوا تكريت، بعد أن تخوف صاحبها بهروز من جرأة نجم الدين وأخيه أسد الدين ومن استحواذهم على قلوب رعاياهم، فاتخذ من مقتل أحد كتابه النصارى على يد أسد الدين شيركوه ذريعة ليكتب إليهم يأمرهم بتسليم القلعة إلى نائب من قبله سيّره إلى تكريت(٢). وعندها صمم الأخوان

(١) تدخل عماد الدين زنكي إلى جانب السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه في نزاعه مع الخليفة المسترشد وقصد بغداد لحصار الخليفة، لكن القائد قراجا الساقي هزمه فهرب ناجياً بنفسه سنة ٥٢٦م/١١٣٢م حيث استضافه نجم الدين أيوب في تكريت.

- ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية ص٨٢ ابن واصل: مفرج الكروب ١/٤٧ - ٤٨.

(٢) أبو شامة: الروضتين ١/٥٣٨.

على التوجه إلى الموصل، وصاحبها آنذاك عماد الدين زنكي الذي لم ينس لنجم الدين سالف صنيعه، لذا فقد أكرم وفادتهما وأقطعهما إقطاعات سنية وصارا من جملة قواده. وحينما فتح بعلبك، وهي مدينة قريبة من دمشق من جهة الساحل، سلّمها إلى نجم الدين أيوب وجعله أميراً عليها في سنة ٥٣٤هـ/١١٤١م(١).

وقد بقي نجم الدين أيوب وأهله في خدمة هذه الأتابكية، حتى بعد مقتل عماد الدين على يد غلمانه سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م وهو قائم على حصار قلعة جعبر، وتقسيم أملاكه بين ولديه سيف الدين غازي وله الموصل وبلاد الجزيرة، والعادل نور الدين وله حلب وقد اغتنم معين الدين أُنر(٢) المتغلّب على أتابكية دمشق هذه الفرصة فتوجه إلى بعلبك فسلّمها إليه نجم الدين أيوب لقاء مال وإقطاعات بعد أن طلب المساعدة من ابني زنكي ولم يجيباه إلى ما

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣/٣٧٨ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/٤٧٤ وعن بعلبك انظر
- ياقوت: معجم البلدان ٢/٢٢٦ وما بعدها.

(٢) تولى معين الدين أنر منصب الأسفهلار (كلمة فارسية مشتقة من سباه سلار وتعني القائد العام للجيش) بدمشق زمن البوريني (٥٣٢هـ) ثم ارتفع شأنه، حين حاصر نور الدين دمشق فتصالحا. وتزوج نور الدين ابنته. وقد توفي أنر في دمشق سنة ٥٤٢هـ/١١٤٨م.
- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٢٦٤ ـ ٣٠٢ أبو شامة: الروضتين ٢/٥١ ـ ٥٢.
- ابن واصل: مفرج الكروب ١/١١٢ وما بعدها ابن الأثير: الباهر ص٥٩.

طلب لانشغالهما في توطيد سلطانهما على أملاكهم. وانتقل نجم الدين إلى دمشق حيث أصبح أحد أبرز قواد هذه الأتابكية، بينما اتصل أخوه أسد الدين بخدمة نور الدين زنكي حيث أعطي حمص والرحبة. وربما كان لطموحهما في السيطرة على الأتابكيتين ما يفسر هذا التصرف الغامض(١).

وقد شارك الأخوان الأتابكيتين في صد خطر الحملة الصليبية الثانية التي قامت من أوروبا على أثر استيلاء عماد الدين زنكي على إمارة الرها بقيادة ملك فرنسا لويس السابع وملك الألمان كونراد الثالث، فاخترقت بلاد وسط أوروبا واتجهت نحو القسطنطينية. ولكن الترك السلاجقة تمكنوا من القضاء على الجزء الأكبر من جيوشهما سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م. وبقي الملكان في قلة من جنودهما وصلا بهم بحراً إلى أنطاكية، وهناك قام أميرها الفرنسي بالمكائد ضد ملكه الذي عاد إلى بلاده(٢) وبذلك لم تمسّ أملاك آل زنكي. ولكن كونراد سار نحو أتابكية دمشق مع أن هدف الحملة الرئيسي كان استعادة الرها. وقد لحق به عندها ملك بيت المقدس حيث حاصراها سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م فاشترك أيوب مع معين الدين أنر في صدّهما عنها، كما جاء غُازي ونور الدين لنصرتهما. ولكن

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ١/ ١١٠ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ١٦ عبد المنعم ماجد: الناصر صلاح الدين الأيوبي ص٥٦.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٢٩٧ - ٣٠٠ باركر: الحروب الصليبية ٧٢ - ٧٧.

معين الدين الذي خاف على ملكه من ولدي عماد الدين أرسل إلى الفرنجة وصالحهم بتسليم بعض القلاع والمال(١).

إن النتائج الفاشلة للحملة الصليبية الثانية ومصالحة معين الدين أنر للصليبيين ثم ما أعقب ذلك من وفاة سيف الدين غازي في الموصل سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م(٢) وتنازل الأخ الأصغر لنور الدين وهو قطب الدين مودود عن أملاكه في الشام لقاء وراثته أملاك أخيه غازي في الجزيرة، جعلت نور الدين، الذي أصبح أكبر الأتابكة الزنكيين يفكر جدياً في الاستيلاء على أتابكية دمشق وضمّها لأملاكه. والذي جعله يعجل في تنفيذ قراره هو استيلاء الصليبيين على عسقلان أكبر معاقل الفاطميين بالشام عام ٥٤٨هـ/١١٥٢م، الأمر الذي قوى أملهم بأخذ دمشق. فتابعوا الغارة عليها، سيما وأن معين الدين أُنر كان قد توفي وضعف مجير الدين صاحبها ووعد الفرنجة بتسليمهم بعلبك(٣). ويبدو أن الخليفة العباسي القوي المتقي لأمر الله هو الذي حث نور الدين على تحقيق هدفه فمنحه تقليداً على البلاد الشامية وكذلك المصرية التي كانت تعاني بدورها من الاضطرابات بسبب مقتل الخليفة الفائز سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م(٤). وقد دبر نور الدين الأمر بينه وبين نجم

(١) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية ص١٥٩ ابن واصل: مفرج الكروب ١١٢/١.

(٢) أبو شامة: الروضتين ٦٥/٢ ـ ٦٦ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٤/٩.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ١٢٦/١ ـ ١٢٧ وعن سقوط عسقلان في سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م انظر قبله وأيضاً ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤٢/٩.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٠٨/١ Grousset: Hist. des croisades 478 - 79...

الـدين أيوب بـوساطـة أخيه شيـركوه[1] فسلّم المدينة إلى أخيـه شيركوه. وقد نقل نور الدين مركز حكمه إليها بعد أن تركها مجير الدين إلى العراق. وعيّن أيوب حاكماً عليها وشيركوه نائباً وصلاح الدين شحنتها وكانت قد بدأت تظهر عليه أمارات الذكاء والشجاعة التي تعلّمها من نور الدين خلال خدمته معه[2] ومن الأكيد أن أسرة صلاح الدين تمكنت في دولة نور الدين وأن صلاح الدين بدأ يدخل مسيرة التاريخ.

وبسقـوط دمشق في يد نـور الدين تحقق جـانب كبيـر من سياسته التي ترمي إلى توحيد الجبهة الإسلامية من جهة ومهاجمة الصليبيين من جهـة أخرى. إذ حصـر المسلمون الصليبيين على الساحل، وأضحى الطريق إلى مصر أمامهم مفتوحاً كيما يتم تطويق الصليبيين وطردهم. على أن سقوط عسقلان في يد الصليبيين جعل الطريق بدوره مفتوحاً أمامهم مما يجعلهم يأملون الإفلات من قبضة نور الدين ويهيىء لهم سبل الاتصال مع الغرب.

وما جرى في مصر من الأحداث، وما حدث من تطور الأمور في بلاد الشام أدّى إلى التسابـق بين نور الدين والصليبيين من أجل الاستيلاء على مصر التي كانت في منتهى الضعف السياسي آنذاك

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ١/١٢٨ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٢٧٩ المقريزي: المـواعظ والاعتبـار ٣/٣٧٨١ حسن حبشي: نـور الـدين والصليبيين ٦٢ وما بعدها

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٣/٤٧٤.

بعد أن أنهكتها الكوارث الطبيعية[1] والمنازعات الداخلية. وأضحت الخلافة الفاطمية على وشك الاحتضار، عارية إلّا من بعض ظلال قوتها السابقة ومجدها الغابر. وإذ أصبح خلفاؤها ألعوبة بين أيدي الوزراء ذوي الصولة والبأس وأصحاب السلطة الفعلية، فقد توالى جلوسهم على كرسي الحكم في إيقاع سريع يدل على مدى الاضطراب والتدهور[2] الأمر الذي زاد في منحى تدهور قوة الدولة الفاطمية مما أغرى جيرانها بالطمع فيها. لقد كانت أشبه بالرجل المريض الذي ينتظر الجميع نهايته لينال كل وريث ما يستطيع الحصول عليه من تركته. لما كانت بمواردها البشرية والاقتصادية الكبيرة كفيلة بترجيح كفة من يستولي عليها أو يضمها إلى جانبه في الصراع الدائر بين نور الدين محمود والصليبيين، فقد آثر الطرفان أن لا ينتظرا النهاية الطبيعية للدولة الفاطمية بل يبادر إلى وضع حد لهذه النهاية.

كانت الأحداث في مصر تجري بسرعة نحو التدهور. فمنذ اغتيال الأفضل بن بدر الجمالي سنة٥١٥هـ/١١٢١م[3] لم يعد هناك حاكم قوي في مصر يستطيع إدارة دفة الأمور، ودخلت البلاد

---

(١) كانت الشدة المستنصرية التي عرفتها مصر في حكم الخليفة المستنصر (٤٢٧ ـ ٤٧٨هـ/١١٣٢ ـ ١٠٩٤م) من أهم أسباب التدهور الاقتصادي الذي عرفته مصر منذ ذلك العصر.

ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧٣/٨ المقريزي: إغاثة الأمة ٥٩ ـ ٦٢.

(٢) الكامل في التاريخ ٣٣٢/٨ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٣) اغتاله الخليفة الفاطمي الآمر ليخلص من استبداده.

في دوامة لا نهاية لها من المؤامرات الدموية، فانتعشت آمال الأعداء المتربصين خارج حدودها. وفي سنة ١١٥٠م بدأ بلدوين الثالث (١١٤٣م - ١١٦٣م) اصلاح تحصينات غـزة مما كشف عن نيته المبيتة في الهجوم على مصر بوضوح. وفي سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م تمكن الصليبيون من الاستيلاء على مدينة عسقلان[١] فأتموا بذلك إخضاع الساحل الفلسطيني بعد نصف قرن على الحملة الصليبية الأولى. وهكـذا تمت موازنـة الهزائم التي لقيهـا الصليبيون على الجبهة الشمالية على يد نور الدين محمود، بانتصارهم في عسقلان ضد الدولة الفاطمية المتهاوية.

وحينمـا مات بلدوين الثـالث في ١٠ شباط١١٦٣م، كـان واضحاً أن سياسته الخارجية التي قامت على أساس غزو مصر لم ولن تتـوقف، إذ ان سيـاسـة خليفتـه أملريـك الأول أو عمـوري (١١٦٣م - ١١٧٤م) كـانت في حقيقة أمـرهـا سلسلة متصلة من المحاولات الدؤوبـة لفتح مصـر، وكانت السيـاسة هـذه تحتمها الظروف، فاتحاد حلب ودمشق تحت طاعة نور الدين جعل غزو مصر الوسيلة الوحيدة لنجاة الصليبيين. كما أن سقـوط مصر بيـد المسلميـن سيجعـل الدويلات الصليبية بين حجري الرحى. وكان من سوء طالع أملريك أن نور الدين كان مدركـاً لهذه الحقيقـة. ولأهميـة التطورات السيـاسية الـداخلية في مصـر على مجريـات

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤٢/٩ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٣٢١.

الصراع الإسلامي الصليبي[1]. وعلى هذا بدا الطرفان على أهبة الاستعداد لبدء السباق في سبيل الفوز بالجائزة الكبرى وهي مصر، بمواردها الاقتصادية والبشرية الهائلة.

وأخيراً سنحت الفرصة لتدخل الجانبين، فبعد موت الوزير الفاطمي الصالح بن رزيك سنة٥٥٨هـ/١١٦١م، اندلع الصراع على كرسي الوزارة بين ابنه العادل الذي مكث في منصب الوزارة خمسة عشر شهراً، شاركه أثناءها السلطة حاكم الصعيد شاور الذي ما لبث أن قتل ابن رزيك وحكم منفرداً، لكن حاجبه ضرغاماً نجاه وطرده خارج مصر[2]. وقد وجد أملريك في الفوضى الضاربة في مصر حينذاك فرصة ملائمة للهجوم عليها بدعوى عدم دفع الجزية التي تقررت للصليبيين على مصر في عهد سلفه بلدوين الثالث[3]. وفي سنة١١٦٣م كانت قوات أملريك تعبر برزخ السويس لتحاصر مدينة بلبيس. لكن ضرغاماً الذي انفرد بكرسي الوزارة والسلطة تصدى له وقطع جسور النيل بحيث شكلت مياه

(١) الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين ص٢٢.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٣٤٦.

(٣) كان بلدوين الثالث ملك بيت المقدس (١١٤٤ ـ ١١٦٢م) قد هدد بغزو مصر سنة ١١٦٠م منتهزاً فرصة الفوضى التي عمتها عقب مقتل الخليفة الفائز لكن الحكومة الفاطمية استطاعت أن تثنيه عن عزمه مقابل تعهدها بدفع جزية سنوية قدرها ٢٦٠ ألف دينار.

ـ سعيد عبد الفتاح عاشور: بحوث ودراسات ص٢٠٤.

الفيضان وأوحال الدلتا عائقاً صعباً أجبر الصليبيين على التراجع إلى فلسطين[1] ولكن إلى حين.

في تلك الأثناء كان الوزير المخلوع شاور يغذ السير نحو بلاط نور الدين محمود في دمشق ليطلب منه العون كي يسترجع كرسي الوزارة مقابل الاعتراف[2] بسيادته على مصر والتكفل بنفقات الحملة وإرسال ثلث الموارد المصرية سنوياً واستجاب نور الدين محمود لطلب شاور وأرسل معه حملة عسكرية بقيادة أسد الدين شيركوه الذي رافقه في حملته هذه ابن شقيقه الشاب صلاح الدين ولمّا يكن قد تجاوز السابعة والعشرين من عمره.

وعندما بلغت ضرغاماً أنباء الاتفاق بين شاور ونور الدين تحرك بدافع من شهوة السلطة والأنانية السياسية، فأرسل يستنجد بالصليبيين[3]. ولم يتردد أملريك في تلبية طلبه. وعلى الفور تحركت حملة صليبية بقيادته ضد مصر لكن حملة شيركوه التي وصلت إلى القاهرة في كانون الثاني ١١٦٥م لم تصطدم بالصليبيين لأن أملريك أدرك مدى كراهية المصريين له فآثر مغادرة البلاد خشية أن يتعرض للهجوم من قبل شيركوه ومن المصريين معاً. وخلال

---

(١) - Schlumberger: Campagnes du roi Ammury de Gerusalem en egypte P38 - 4.

- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية ص١٤٠.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٣٤٦ أبو شامة: الروضتين ١/١٣٠.

(٣) سعيد عاشور: دراسات في العصور الوسطى ص٢٠٥ - Wiet: L'egypte Arabe P294.

الخمس سنوات التالية قام هذا الملك بغزو مصر خمس مرات دون جدوى(1). وهكذا انتقل ميدان الصراع بين نور الدين والصليبيين من شمال بلاد الشام إلى ميدان جديد هو شرق دلتا النيل وعلى طول المسافة ما بين القرما والقاهرة. وكانت هذه النقلة في مجال الصراع أكبر من مجرد نقلة جغرافية. لقد كانت بمثابة تطور جديد في المفاهيم السياسية حيث فرض منطق التاريخ وحقائق الجغرافية أن تكون مصر ميداناً رئيسياً في الحروب الصليبية لا هامشاً عرضياً من هوامش ذلك الصراع الطويل المضني.

وعلى أي حال أدّت محاولات أملريك الفاشلة لاحتلال مصر إلى نتيجتين هامتين، فمثلت أولاهما في تقلص الموارد البشرية والمادية لمملكة بيت المقدس الصليبية من ناحية، وثانيتهما في تغيير خريطة العلاقات السياسية لصالح القوى العربية الإسلامية. فقد قتل ضرغام وشاور في خضم هذه الأحداث، وصار شيركوه وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد. وبعد موت أسد الدين شيركوه سنة٥٦٤هـ/١١٦٤م، خلفه ابن شقيقه صلاح الدين في منصب الوزارة(2). وقد أثبتت الأحداث فيما بعد أنه سيكون الرجل الذي

---

(١) عن تفاصيل هذا الصراع انظر:
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/٦٤ - ١٠٦ أبو شامة: الروضتين ١/٣٣٠ - ٣٣٢.
- رنسمان: الحروب الصليبية ٢/٣٨٥ - ٣٨٨.

(٢) عن مقتل شاور وضرغام وتولي شيركوه ثم صلاح الدين الوزارة للعاضد الفاطمي انظر أبو شامة: الروضتين ١/١٤٤ - ١٨٠ ابن واصل: مفرج=

اختارته الأقدار كي يكون بطل الحقبة الحرجة في تاريخ المنطقة العربية الإسلامية آنذاك، والذي سينجز المهمة الخطيرة المتمثلة بتحرير الأرض الإسلامية من سيطرة الصليبيين. وقد أمضى الجزء الأول من حياته في التحضير والاستعداد لإنجاز هذا العمل العظيم الذي نذر نفسه له.

٢ ـ صلاح الدين يوحد الجبهة الإسلامية:

كان صلاح الدين يدرك بثاقب نظره أن عليه توحيد الجبهة الإسلامية الداخلية قبل أن يفكر بالقدوم على أي مشروع جدي ضد الصليبيين. وكخطوة أولى لتحقيق طموحه، قرّر ضرورة القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية التي لم يكن لديه أو لدى نور الدين أي باعث ديني، بحكم عقيدتهما المذهبية السنية، للإيمان بأحقيتها حتى يبقيا عليها. ومع أن نور الدين كان يلح على صلاح الدين أن يتخذ الخطوات اللازمة الكفيلة بإعلان نهاية الخلافة الفاطمية وإعادة مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية. لكن هذا الأخير كان يتمهل في الإقدام على هذه الخطوة فوراً، ريثما يستكمل استعداداته لها. لهذا نراه يعمل على محاربة الدعوة الفاطمية مستفيداً من إشرافه على القضاء والدعوة معاً، إذ كان من ألقابه، كوزير تفويض للعاضد، لقب كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين[1] وممّا أطلق يده فعزل صلاح الدين قضاة مصر الشيعة

= الكروب ١/١٦٥ وما بعدها البنداري: سنا البرق الشامي ٧٧ ـ ٨١ ماجد: الناصر صلاح الدين ٦٤ ـ ٧٤.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٣ ماجد: الناصر صلاح الدين ٨٠.

وقطع أرزاقهم وشرّد الدعاة وألغى مجالس دعوتهم وأزال أصول المذهب الشيعي. ثم أخذ في إبراز أن نسب الفاطميين غير صحيح[1]، كذلك منع صلاة الجمع في الجامع الأزهر وبجامع الحاكم حيث استمر هذا المنع مائة عام إلى أن جاء المماليك ليعيدوها إلى الجامعين[2] كما أخذ يخطب لنور الدين بعد العاضد في الجوامع الأخرى[3]. وفي نفس الوقت جعل صلاح الدين همه عودة مذهبي السنة، الشافعي والمالكي، إلى انتشارهما الأول قبل مجيء الفاطميين، عن طريق بناء مدارس لتدريس هذين المذهبين في القاهرة وغيرها على غرار ما كان يفعل نور الدين بالشام[4]، وجعل الحكم في مصر كله للقضاة الشافعية وحدهم. ويذهب المقريزي إلى أن نتيجة ذلك أن تظاهر الناس بمصر بمذهبي مالك والشافعي واختفى مذهب الشيعة[5].

ثم خطا خطوة أخرى ترمي إلى إضعاف نفوذ حاشية القصر والتي كان نفوذها كبيراً في زمن العاضد، تتدخل في شؤون السياسة بحيث شكلت فرقة كبيرة لم تعرف مصر لها مثيلاً في أي عصر إسلامي من قبل، إذ يقول المقريزي أن عددها عند سقوط دولة

---

(١) أبو شامة: الروضتين ١/٢٠١.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة ٢/٦٧.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/١٧٥.

(٤) المقريزي: المواعظ ٤/١٩٢ - ١٩٣ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/٥٤ - ٥٥ أحمد بدوي: الحياة العقلية في مصر الحروب الصليبية ص١١.

(٥) المقريزي: المواعظ ١/١٧٥.

الفاطميين بلغ ثمانية عشر ألفاً[1]. وكانت تتكون من موظفين من كل نوع ولون يقومون بأعمال القصر المختلفة، وإن تميزت بينهم طبقة من العبيد البيض والسود أغلبها من أصل أجنبي، من الصقالبة الأوروبيين، أو السودانيين، ويعرفون بالأستاذين. وهذه الكلمة من أصل فارسي تعني عبيد القصر الذين يقومون بأعماله المختلفة. وقد كان يشرف على هذا الجهاز الضخم في القصر رؤساء لهم يعرفون بالأستاذين المحنكين لتميزهم عن غيرهم بزي الحنك، وهو أن يمر طرف العمامة تحت الحنك ليصعد من الجهة المقابلة ويلتف من جديد حول الرأس. وكان هؤلاء يكونون «الخاصة» للخليفة ولهم نفوذ كبير إذ كان الواحد منهم له حق التلقب بلقب الأمير، كما كان الخليفة والوزير يشتركان أحياناً في لبس زيّهم المميز مما يدل على خطورة مناصبهم[2].

بدأ صلاح الدين بمضايقة أهل القصر الفاطمي وعلى رأسهم مؤتمن الخلافة جوهر[3] المتولي لشؤون القصر والذي تزعم مؤامرة للتخلص من صلاح الدين بعد توليه الوزارة بأربعة أشهر. وكاتب المتآمرون الصليبيين ودبروا الأمر فيما بينهم، حتى إذا خرج صلاح

---

(١) المقريزي: نفس المصدر ٢/٣٩٦.

(٢) عن تنظيم القصر الفاطمي انظر:

ـ القلقشندي: صبح الأعشى ٢/٤٨١ ـ ٤٨٥ عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم ٢/١٠ وما بعدها.

(٣) أبو شامة: الروضتين ١/٤٥٠ ـ ٤٥١ ابن واصل: مفرج الكروب ١/١٧٤.

الدين لمحاربة أعدائه الصليبيين قبضوا على من بقي من رجاله في القاهرة، بل زادوا على ذلك واتفقوا مع الصليبيين على اقتسام البلاد فيما بينهم بعد اغتيال صلاح الدين. وبعث المتآمرون بكتاب مع رسـول وأخفـوا الكتـاب في نعليه. وبينمـا كان في طـريقـه إلى الصليبيين بالشام اشتبه به بعض جنود صلاح الدين فقبضوا عليـه وأخذوه إلى صلاح الدين فاعتـرف بفعلته. وأخفى صـلاح الدين الأمر كله وترك مؤتمن الخلافة جوهر يروح ويجيء بحرية، حتى إذا كان يتنزه يوماً في بساتينه خلف القصر، بعث إليه صلاح الدين من قضى عليه، ثم عيّن مكانه كمشرف على القصر رجلاً آخر يثق بـه هو بهاء الدين قراقوش[1] فجعله زماماً للقصر أي مشرفاً على شؤونه بحيث أصبح لا يجري فيه صغيرة ولا كبيرة إلاّ بأمر صلاح الدين وعلم أتباع جوهر الخصيّ نبأ مقتله وكانوا نحواً من خمسين ألفـاً فقاموا بحركة تمرد في القاهرة، فأرسل إليهم صلاح الدين أحد قادته المشهورين وهو أبو الهيجاء السمين[2] الذي استمر يقاتلهم طيلة

---

(١) هو قراقوش بن عبد الله الأسدي الخادم الصلاحي، وقراقوش لفظ فارسي معناه العقاب كان صلاح الدين يثق به ويعتمد عليه وهو الذي بنى قلعة الجبل والسور على مصر والقاهرة والقنطرة التي عند الأهرام. تسلم عكا بعد فتحها، وأسره الفرنج بعد استردادها فافتداه صلاح الدين توفي سنة ٥٩٧ هـ.

- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٧٧/٦ - ١٧٨.

(٢) هو حسام الدين أبو الهيجاء السمين كان من كبار أمراء صلاح الدين ومن أصدقاء العماد الكاتب ولي نيابة القدس فترة ثم عزله العزيز عثمـان بن صلاح الدين، سار إلى بغداد وأصبح من جملة أمراء الخليفة فسيّره إلى -

يومين كما أحرق محلتهم قرب باب زويلة. ثم أجهز عليهم الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه، أخو صلاح الدين، حين تفرقت شراذمهم في الجيزة. وكانت هذه الوقعة في أواخر ذي القعدة سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م[1].

وقد انتهز الصليبيون هذه الفتنة الداخلية، فهرعت قوات أملريك لتهاجم دمياط، كما قدم أسطول ضخم مؤلف من سفن بيزنطية وصقلية ليسهم في حصار المدينة. وبعث صلاح الدين بالنجدات إلى دمياط عن طريق النيل بقيادة ابن أخيه تقي الدين شاهنشاه وخاله شهاب الدين الحارمي. ولم تلبث أن جاءته الإمدادات من عند نور الدين بالشام. وفي الوقت الذي اشتد فيه الحصار على دمياط قامت قوات صليبية أخرى بالشام فاستولت على حصن عكا حتى يشغل المسلمون في جهات متعددة، ولكن نور الدين أمر بمهاجمتهم من جانب آخر فعجزوا عن المقاومة وفكّوا الحصار وجلوا عن دمياط في ربيع الأول سنة ٥٦٥هـ/آب ١١٧٠م

= همذان فلم يتم له أمر واختلف أصحابه عليه فاستحيا أن يعود فسار إلى الشام حيث مرض ومات سنة ٥٩٤هـ قرب إربل.
- العماد الكاتب: الفتح القسي ٤٦٢، ٥٦٢ ابن الأثير: الكامل ١٢/٨١ - ٨٢.
- ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/١٥ ابن تغري بردي: النجوم ٥/٣٣٩و٦/١٤٥.

(١) المقريزي: المواعظ ٣/٣ وما بعدها وعن توران شاه انظر وفيات الأعيان ١/١٧٥ - ١٧٧.

بعدما يقرب شهرين من الحصار[1] شرع صلاح الدين، عقب رد الصليبيين عن دمياط، بمهاجمة مواقع الصليبيين بالشام، فقام في أوائل٥٦٦هـ/١١٧١م بالإغارة على معاقل الصليبيين في الرملة وعسقلان وأنزل بملك القدس هزيمة ساحقة كاد معها أن يقع في الأسر، كما استولى على أيلة (العقبة) وشيّد بها الاستحكامات القوية[2].

على أن نور الدين أخذ يلح على صلاح الدين بوجوب إزالة الخلافة الفاطمية وإعادة المذهب السني إلى مصر. فلم يجد صلاح الدين مندوحة من تحقيق هذه الرغبة وتولى نجم الدين الجنوشاني، وهو رجل فارسي استقر بمصر منذ زمن طويل، تنفيذ ذلك عندما ألقى بالفسطاط أول خطبة باسم الخليفة العباسي المستضيء وذلك أول جمعة من سنة٥٦٧هـ (أيلول ١١٧١م). وكان العاضد على فراش المرض وما لبث أن توفي بعد ذلك بثلاثة أيام دون أن يعرف ماذا حدث، وقيل لمن في القصر إن سلِم فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن تنغّص عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله[3]. ثم ان

---

(١) أبو شامة: الروضتين ١/١٨٠ ـ ١٨١ ابن الأثير: الكامل ٢٣١/١١ والباهر ١٤٣ ـ ١٤٤ ابن شداد: النوادر السلطانية ٣٣ ـ ٣٤ ابن واصل: مفرج الكروب ١/١٧٩ ـ ١٨٤.
ـ البندقداري: سنا البرق الشامي ٨٦ ـ ٨٧ ابن كثير: البداية والنهاية١٢/٢٦٠.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٢٨٥ ـ ٢٨٦ ابن الأثير: الكامل ٣٤٠/١١.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٦/٦٣ ـ ٦٤.

صلاح الدين وضع العائلة الفاطمية تحت إشراف ومراقبة شديدتين وفصل بين الذكور والإناث ليتأكد من القضاء على ذريتهم، كما استولى على الكنوز التي كان خلفاء الفاطميين قد كدّسوها منذ مجيئهم إلى مصر. وهكذا كان الانتقال من الدعوة الفاطمية إلى العباسية يسيراً حتى ان ابن الأثير يقول: إنه «لم ينتطح فيه عنزان»[١].

وقد تلقت بغداد الخبر بفرح عظيم ودامت الاحتفالات فيها أياماً وبعث الخليفة المستضيء إلى نور الدين بخلعة، وإلى صلاح الدين بعث بخلعة وراية سوداء، وأصبح يخطب لصلاح الدين على منابر مصر بعد الخليفة العباسي ونور الدين[٢] وبالنسبة للمصريين فقد كان لإنهاء الخلافة الفاطمية وقع أليم، فسقوطها يعني عندهم أن مركز بلادهم قد ضعف بعودتها ولاية تابعة للخلافة العباسية وأن عصر الرخاء الذي عرفته زمن الفاطميين قد ولّى لأن أموال مصر ستؤول للترك الغرباء في مصر والشام. لذا فإنهم دبروا مؤامرة في سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣م) تزعّمها الشاعر عمارة بن أبي الحسن بن زيدان اليمني[٣] وكان هدف المؤامرة القضاء على صلاح الدين

(١) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية ٢٨٢ ـ ٢٨٤ أبو شامة: الروضتين ٤٩٢/١ ـ ٤٩٣.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٥٧/٥.

(٣) هو أبو محمد عمارة بن علي بن زيدان نجم الدين اليمني ولد في حدود سنة ٥١٥هـ/١١٢٧م. جاء إلى مكة حاجاً فسيره صاحبها رسولاً إلى القاهرة حيث نال حظوة عند الخليفة الفاطمي الفائز ووزيره الصالح بن رزيك. مال إلى الفاطميين واعترف بدعواهم، وعندما فتح صلاح الدين مصر مدحه =

ورجاله وإعادة الخلافة الفاطمية وتولية ابن العاضد الأكبر ولقّبوه بالحامد بالله. وقد شارك في هذه المؤامرة داعي الدعاة عبد الجبار بن إسماعيل والقاضي الأعز، وابن عبد القوي المعروف بالجليس وكان أفراد أسرته يتولون رئاسة الدعوة الفاطمية أباً عن جد، والعَوْريس متولي ديوان النظر، والواعظ زين الدين بن نجا الدمشقي الحنبلي، وكاتب المتآمرون الصليبيين بالشام والنورمان في صقلية، كما اتصلوا بصاحب الدعوة الإسماعيلية في شمال الشام رشيد الدين سنان بن سليمان الملقّب بشيخ الجبل، كما استمالوا بعض القواد الترك ممن كانوا على خلاف مع صلاح الدين. غير أن المؤامرة كشفت بعد أن رفض الفقيه ابن نجا التواطؤ معهم ولكنه تظاهر بالموافقة حتى ألمّ بتفاصيل الخطة ونقلها إلى صلاح الدين (١) الذي سارع إلى إلقاء القبض على جميع المتآمرين وكان ذلك في رمضان سنة ٥٦٩هـ/نيسان ١١٧٤م وأمر بشنقهم جميعاً ومصادرة أموالهم، وصلب عمارة اليمني، كما أمر بطرد من بقي من حاشية القصر الفاطمي إلى أقاصي الصعيد. ولم يعلم النورمان ما حلّ بالمتآمرين وبعثوا بأسطول إلى الإسكندرية في ذي

= عمارة وإن ظل على ولائه للفاطميين، قتل شنقاً بأمر صلاح الدين في رمضان سنة ٥٦٩هـ/١١٧٥م بسبب قصيدة مدح فيها الفاطميين وفي قول آخر بسبب تورطه في مؤامرة لاجلاس ابن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين على العرش بمعونة الصليبيين والإسماعيلية.

- ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/٨٦ - ٨٩.

(١) أبو شامة: الروضتين ١/٥٦٠ وقيل أيضاً إن الذي فشا سر المتآمرين هو ابن مصال.

الحجة عام٥٦٧هـ/آب١١٧٢م، وكان يتألف من خمسمائة سفينة حربية. وتذكر المصادر العربية أن عدد القوات التي نزلت إلى البر بلغ ثلاثين ألف جندي وعدد الفرسان ألف وخمسمائة، واقتربوا من أسوار الإسكندرية حيث نصبوا خيامهم. فداهمهم أهل الإسكندرية وقتلوا منهم نحو سبعمائة مقاتل كما دمروا ثلاثمائة خيمة. ويقول ابن الأثير: ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم(١) وكان صلاح الدين مرابطاً عند بلدة فاقوس شرقي الدلتا، فوصله الخبر ثالث يوم من القتال فأسرع بإرسال الجنود إلى الإسكندرية وكذلك إلى دمياط، وفي الوقت نفسه أرسل إلى أهل الإسكندرية يخبرهم أنه في الطريق إليهم فازداد حماسهم واشتد تنكيلهم بالعدو. وسمع الصليبيون بقرب وصول صلاح الدين فأسقط في أيديهم وفترت روحهم المعنوية وتراجعوا فاشلين يوم الخميس أول محرم سنة٥٧٥/٢آب١١٧٤م بعد أن منوا بخسارة فادحة في الأرواح والسلاح(٢).

وما لبثت الثورة أن اشتغلت من جديد في الصعيد عام١١٧٤م وقام يتزعمها والي أسوان كنز الدولة(٣). وقد اشترك معه

(١) ابن الأثير: الكامل ١١/١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢) للالمام بهذه الحملة وتفاصيلها راجع
ـ أبو شامة: الروضتين ١/٢٣٤ ـ ٢٣٥ ابن واصل: مفرج الكروب ٢/١١ ـ ١٦.
ـ المقريزي: السلوك ١/٥٥ ـ ٥٧ ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٢٨٧.

(٣) الكنوز بطن من القبيلة العربية ربيعة استقروا حول أسوان وفي بلاد النوبة واختلطوا مع النوبيين وتزوجوا منهم. وكنز الدولة لقب منحه الحاكم بأمر =

في هذه الثورة عباس بن شادي والي قوص الواقعة وسط الصعيد، وهي محطة للتجارة والحجاج. وقد جمع هذان الثائران حولهما عدداً من الناس وقتلا أخاً لأبي الهيجاء السمين وهو أحد كبار قادة صلاح الدين، كما دعوا للأمير داود بن العاضد. وقدر السلطان صلاح الدين خطورة ثورة الصعيد وفكّر بالذهاب بنفسه على رأس حملة كبيرة لإخماده، لكن خوفه من تجدد الثورة بالقاهرة حمله على أن يرسل أخاه العادل على رأس حملة استطاعت أن تنزل الهزيمة بالثوار وتقتل الكنز وعباساً مع ثمانين ألفاً من أتباعهما، كما نهبت الصعيد وأسرت كثيراً من أهلها وصلبت ثلاثة آلاف منهم[1].

هذه الهزيمة القاسية لأتباع الفاطميين لم تفتّ في عضدهم، ففي عام ٥٧٣هـ/١١٧٦م ثاروا مجدداً بمدينة قفط واستطاع أحد أنصار الفاطميين القدامى من بني عبد القوي أن يجمع حوله جموعاً كبيرة بقصد إعادة الخلافة للفاطميين، فسار الملك العادل إليهم، وكان ينوب عن أخيه في حكم مصر، على رأس جيش كبير فقتل ثلاثة آلاف وصلب كثيرين على جذوع شجر المدينة ليكونوا عبرة لمن تسول له نفسه الدعوة إلى الفاطميين بعد ذلك[2].

= الله لحاكم النوبة في عهده وهو أبو المكارم هبة الله الشيخ أبي عبد الله بن علي عندما ظفر بالثائر أبي ركوة الفار إلى بلاده. وأصبح من ثم لقباً يطلق على حكام النوبة وأخرهم هذا المعاصر للسلطان صلاح الدين.
- ابن شداد: النوادر السلطانية ص٤٧ حاشية ٥.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ٢/١٦ - ١٧ ابن شداد: النوادر السلطانية ص٤٨ ماجد: الناصر صلاح الدين ص٩٧.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/٤١٠.

وبهـذه الحملة يكون صـلاح الدين قـد أمّن حـدود مصـر الجنوبية، وكذلك أمّن حدود مصر الغـربية بـالاستيلاء على ليبيـا ومعظم بلاد المغرب بعدما أرسل جيشاً بقيادة قراقوش التقوي[1] استولى على طرابلس الغرب ومعظم بلاد تونس وقد عاونه في الفتح أحد رجال المغرب الخارجين على سلطة صاحب المغرب.

أما فتح اليمن فقد تم في سنة٥٦٥هـ/١١٧٣م بتكليف من الخليفة العباسي المستضيء عندما قطع صاحب اليمن، أمير زبيد عبـد النبي بن مهدي الخـطبـة للخليفـة العباسي واعتـدى على الناس، فاستغاثوا بالخليفة الذي أحالهم على صلاح الدين. فبعث إليهم صلاح الدين جيشاً بقيادة أخيه شمس الدولة تورانشاه. ومثل شمس الدولة إلى مكة ومنها إلى زبيد فقبض على المتمردين ثم تابع سيره إلى عدن واستولى عليها كما استولى على قلعة تعز وغيرها من المعـاقل والحصـون وأعاد تـوزيع الحكـام في نواحي اليمن من الموالين من رجاله[2].

وكان القدر يحبو صلاح الدين بتأييده، ذلك أن السلطان نور الدين محمود توفي في شوال سنة٥٦٨هـ/أيار١١٣٤م، فأمن بوفاته

---

(١) هو مملوك الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وهو غير قراقوش المار ذكره. وأخباره موجودة في مضمار الحقائق وسر الخلائق لابن شاهنشاه الأيوبي.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية ٤٦ والمهديون أسرة حكمت زبيد بين سنتي ٥٥٤ ـ ٥٦٩هـ (١١٥٩ ـ ١١٧٣م) وحكم من هذه الأسرة ثلاثة فقط هم علي بن مهدي بن علي وعبد النبيّ بن علي.

منافسته ومشاريعه نحو مصر وتسنى له أن يفصح عن نزعته الاستقلالية التي كانت تجيش بها نفسه قبلاً. هذه النزعة التي استشعر بها نور الدين عندما دعاه ليسير بقواته إلى الكرك حيث يعتزم هو السير إليها في نفس الوقت ويتعاونان معاً على هزيمة الفرنج. وقد اعتذر صلاح الدين عن السير إليه بحجة أن الموقف في مصر يستدعي بقاءه خشية انتقاض أنصار الفاطميين من جديد واضطراب النظام إذا ترك البلاد. الأمر الذي أحدث وحشة بين الرجلين وسبب غضب نور الدين عليه، فعمد إلى إرسال موفق الدين خالد القيسراني متولي ديوان الاستيفاء ليطلب منه بيانات بخراج مصر[١] ومن الواضح أن نور الدين طلب إلى رسوله أن يتعرف على نوايا صلاح الدين وميوله[٢] بل ونمي إلى صلاح الدين أن نور الدين يفكر بالسير إلى مصر لانتزاعها منه، لكن صلاح الدين استطاع أن يقنع القيسراني بحسن تصرفه وأخذ في جمع الأموال التي سوف يرسلها إلى نور الدين وجعل للقيسراني من الأموال ما لم يكن يتوقعه، وحمله من الهدايا ما تفوق في الفخامة والأبّهة ما سبق أن بعث به.

ترك نور الدين وراءه في الحكم طفلاً في الحادية عشرة من عمره هو الملك الصالح إسماعيل وأغرى صغر سنه كبار أمراء والده وقادته بالسيطرة على شؤون الدولة، كل منهم يريد أن ينصب نفسه

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ١/٢٣٢ وديوان الاستيفاء هو ديوان المالية (صبح الأعشى ٥/٤٦٦).

(٢) ابن واصل: نفس المرجع ١/٢٥٧ ـ ٢٥٨ أبو شامة: الروضتين ١/٢٢١.

ولياً وأتابكاً للصالح إسماعيل، وقد أحدث هذا التنافس انقساماً خطيراً بين الأمراء في الشام ممّا أفسح المجال للتدخل الخارجي من جانب صلاح الدين. وكان صلاح الدين يؤمن كل الإيمان بأحقيته في أن يرث نور الدين زنكي في ممتلكاته ورسالته التي حملها، وهي جهاده ضد الصليبيين، لذا لم يتردد في السير إلى دمشق مظهراً أنه أحق بتربية الملك الصالح رعاية لعهد والده، وأنه لو استمرت ولاية هؤلاء القوم تفرقت الكلمة وطمعت الكفار في البلاد[1]. وفتحت دمشق أبوابها لصلاح الدين في أواخر شهر ربيع الأول سنة ٥٧١هـ/٢٧ تشرين الثاني ١١٧٤م وامتنعت عليه قلعتها إلى أن اقتنع واليها جمال الدين ريحان بحسن نية صلاح الدين، كما استولى على حمص وحماه[2]. وكان صلاح الدين يعلن في كل مرة ينتزع فيها مدينة تابعة لأتابكية حلب، عن طاعته للملك الصالح إسماعيل ورغبته في توحيد الكلمة والمحافظة على بلاد المسلمين من الفرنج واستعادة ما اغتصبه سيف الدين غازي أتابك الموصل من بلاد الجزيرة[3] التابعة لأخيه نور الدين مستغلاً فرصة وفاته. ثم زحف صلاح الدين إلى حلب وحاصرها. واستعان الحلبيون براشد الدين سنان زعيم الإسماعيلية وعرضوا عليه أن يبعث جماعة من فدائييه لاغتيال صلاح الدين لقاء ضياع وأموال كثيرة بذلوها له،

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ٢/١٨.
(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/٣٢٨.
(٣) ابن الأثير: الكامل ١١/٤١٧ ـ ٤١٨.

ولـم يكتب لهذه المؤامرة النجاح[1] كما استنجد الصليبيون بريموند الثالث أمير طرابلس الصليبي الذي توجه إلى حمص لقطع طريق العودة على صلاح الدين إلى دمشق. في الوقت الذي توجهت فيه قوات الموصل بقيادة عز الدين مسعود بن مودود الزنكي عن حلب، فخاف صلاح الدين أن يقع بين نارين وسارع بفـك الحصار عن حلب، واضطرت خطوته هذه ريموند الثالث أن يعود إلى طرابلس منهزماً[2].

وتابع صلاح الدين سيره جنوباً إلى بعلبك فآستولى عليهـا صلحاً. ومال صلاح الدين لمصالحة الحلبيين والتنـازل للصالـح إسماعيل عن البلاد التي افتتحها ما عدا دمشق على أن يكون فيها نائباً عن الملك الصالح وأن تكون الخطبة والسكة له[3]. إلاّ أن هذا الميل أطمع الحلبيين في طلب المزيد من التنازلات فطالبوه بالرحبة وأعمالها، فآعتذر صـلاح الدين عن إجـابتهم لأنها بيـد ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ولا سبيل إليها، فعزم عسكر الموصل وحلب على مقاتلته ودارت معركة في مكان يعرف بقرون حماة هزم فيها عز الدين مسعود قـائد العسكـر الموصلي وأسـر جماعـة من أصحابه، أطلق صلاح الدين فيما بعد سراحهم، وهرب البـاقون

(١) أبو شامة: الروضتين ١/ ٢٣٩ - ٢٤٠ ابن الأثير: ١١/ ٢٧٧ ابن واصل: مفرج الكروب ٢/ ٢٤ ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٨٨ البندقداري: سنا البرق الشامي ١٨١.
(٢) أبو شامة: الروضتين ٢/ ٦١١ المقريزي: السلوك ١/ ٥٩.
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ٢/ ٣٢ ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٠.

إلى حلب التي حوصرت للمرة الثانية. كما قطع صلاح الدين الخطبة للملك الصالح وأزال اسمه عن السكة في بلاده[١]، وبقي محاصراً لحلب حتى راسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها، فأجابهم صلاح الدين إلى ذلك ورحل من حلب، ووصلته وهو بحماة رسل الخليفة العباسي المستضيء بالله بتقليده السلطنة على بلاد مصر والشام[٢].

حنق سيف الدين غازي الثاني، صاحب الموصل، لاستسلام الحلبيين وبعث إليهم رسولاً من قبله ليأخذ عليهم العهود بنقض الصلح الذي أبرموه مع صلاح الدين، والعمل معه على إخراج صلاح الدين من الشام[٣]، وفي الوقت نفسه وكل هذا الرسول بالمرور على دمشق ومقابلة صلاح الدين لاستطلاع نواياه. وشاءت الأقدار أن ينكشف خداع سيف الدين غازي، فقد أخطأ الرسول وأعطى صلاح الدين نسخة يمين ولاء الحلبيين لسيف الدين بدلاً من رسالة الأمان، فلما قرأها صلاح الدين قال للرسول في هدوء: «لعلها تبدلت» فأيقن الرسول خطأه، ثم سأله صلاح الدين: «كيف حلف الحلبيون لسيف الدين ومن شرط أيمانهم أنهم لا يعتمدون أمراً إلاّ بمراجعتهم واستئذانهم؟»[٤].

وتأكد لصلاح الدين أن الحلبيين نقضوا العهد الذي ارتبطوا

---

(١) رشيد الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص١٢٩.
(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية ٥١ ابن واصل: ٢/٣٣ ـ ٣٤.
(٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ٢/٧٤٦ ـ ٧٤٧.
(٤) البندقداري: سنا البرق الشامي ١٩٥ ـ ١٩٦.

به وأنهم يستعدون لمواصلة القتال ضده مجدداً، فأوعز لأخيه العادل، نائبه على مصر، يطلب منه إمداده بالعساكر والخروج إليه وذلك في شعبان ٥١٧هـ/ شباط ١١٧٦م، فيما اتفق الحلبيون مع الصليبيين على أن يعاضدوهم في حربهم المقبلة مع صلاح الدين وأطلقوا سراح من عندهم من أسراهم كأرناط صاحب الكرك وجوسلين الثالث أمير الرها.

عبر صلاح الدين بجيشه نهر العاصي ووصل إلى قرون حماة حيث دارت معركة هائلة في نيسان ١١٧٦م هزم فيها الحلبيون والمواصلة هزيمة منكرة وأسرع سيف الدين غازي يعبر الفرات إلى الموصل وهو لا يصدق النجاة[1]، وأبقى في حلب أخاه عز الدين مسعود. وأيقن أمراء حلب أن صلاح الدين لن يترك حلب هذه المرة بعد أن ضرب عليها للمرة الثالثة، كما تأكدوا من عجزهم عن مقاومته فحاولوا مراضاته وطلبوا الصلح معه. وكان صلاح الدين كريماً معهم فأجابهم إليه. كما دخل في الصلح أهل الموصل وديار بكر وعاد صلاح الدين إلى مصر.

وفي عام ١١٨٠م توفي سيف الدين غازي الثاني فخلفه في الموصل أخوه عز الدين مسعود كما توفي الصالح إسماعيل في العام التالي بعد أن أوصى بحلب لابن عمه عز الدين مسعود الذي دخلها تنفيذاً لوصية الملك الصالح. ولما كانت حلب من جملة البلاد التي اشتمل عليها تقليد الخليفة المستضيء لصلاح الدين عام ٥٧٨هـ

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ٢/ ١٧٢ ابن الأثير: الكامل ١١/ ٥١٧.

فقد خرج صلاح الدين من القاهرة في أيـار ١٩٨٢م إلى دمشق، ومنها تقدم إلى حلب وكانت قد آلت إلى عماد الدين زنكي الثاني، بعد أن تنازل له أخوه عز الدين مسعود عنها، فحاصرها ثلاثة أيام فقط، ثم عدل عنها وعبر الفرات وأقام في مدينة البيرة، وصاحبها شهاب الدين الأرتقي وهو من أنصاره. ومن البيرة بعث برسائل إلى الملوك والأمراء يرغبهم فيها بالدخول في طاعته، فأجابه نور الدين ابن قرا أرسلان الأرتقي صاحب حصن كيفا بعد أن وُعد بآمد إذا فتحهـا صلاح الـدين. وآستولى صـلاح الدين على الـرهـا بعـد حصارها فأعطيت لمظفر الدين كوكبـوري[1] صاحب حـران. ثم واصل تقدمه إلى الرّقة فآنتزعها من صاحبها قطب الدين ينـال بن حسـان المنبجي، كما نـازل نصيبين وآستـولى عليهـا وأعـطاهـا لحسام الدين أبي الهيجاء السمين.

ولم يبق على صـلاح الدين إلاّ المـوصل. وقـد حاصـرها صلاح الدين على فتـرات ثلاث لم يتمكن منهـا بطائـل. وتنازل عماد الدين زنكي الثـاني عن حلب لقاء أخـذه سنجـار والخابـور ونصيبين والرقة وسروج، كما آستولى على آمد وميافارقين.

وترددت الرسل بين عز الدين مسعود وصـلاح الدين طلبـاً للصلح. وآتصلت المفاوضات حتى أسفرت عن اتفاق بين الطرفين ينص على أن يخـطب لصلاح الـدين في جميع بـلاد المـوصـل

(١) هو مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك بن بكتكين صاحب حران ثم إربل عاون صلاح الدين في الاستيلاء على الجزيرة توفي سنة ٦٣٠هـ.

وتضـرب السكـة بـأسمـه وذلــك في ذي الحجـة ٥٨١هـ/ آذار ١١٨٦م[١].

وترتب على هذا الاتفاق نتائج سياسية هامة، فقد خسرت الموصل كيانها كدولة مستقلة، وأصبح أتابـك الموصـل واحداً من نـواب صلاح الدين وتـابعاً من أتبـاعه ليس لـه من الحكم سوى الاسم واللقب[٢].

٣ ـ جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين:

على أنه لا ينبغي لنا أن يغيب عن تفكيرنا، أن صلاح الدين لم يغفل خلال هذه الفترة أمـر الصليبيين. غير أن مـا قام بـه من إجراءات ضد الصليبيين، يصح تقسيمها إلى مرحلتين متميزتين. ففي المرحلة الأولى لم يفكر السلطان في القيام بعمليات حـربية واسعة النطاق كالتي بدأ بها بعد توحيد مصر والشام والتي تعتبـر المرحلة الثانية بعد أن بسط سلطانه على منطقة تمتد من النيل إلى الفرات حافلة بإمكانات وموارد هائلة، غير المساعدات المتوقعة في حال نشوب المعركة ضدالصليبيين. إن حملات صلاح الدين الأولى كـانت مـوجهـة إلى أرض الصليبيين، المحصورة بين الأراضي الإسلامية والتي تعترض طرق المواصلات بين مصر والشام وبالتالي فإن الاشتباكات حتى ما بين ١١٧٤م ـ ١١٨٠م حيث عقدت الهدنة بين بـودوان الرابـع والسلطان صلاح الـدين لم تؤد إلى تغيير في

(١) رشيد الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص ١٥٩.

(٢) المقـريـزي: السلوك ١/٦٦ ـ ٦٩ مـاجـد: السلطان صـلاح الـدين ١٣٤ ـ ١٣٥.

الأوضاع الإقليمية وإن كان صلاح الدين قد أفاد من هذه الحروب في أمور عديدة. فبالإضافة إلى ما أحرزه من انتصارات في مواقع شتى وما دمر من حصون لا سيما بين دمشق وطبرية، وما وقع بين أيديه من أسرى، كما رد الأسطول الذي هاجم الإسكندرية وجدد استحكامات دمشق وتحصيناتها وبنى جسراً من السفن يصل بين البرجين اللذين يتحكمان في دمياط، وكذلك بنى قلعة في تنيس وحصن الإسكندرية. وآهتم بالأسطول والبحرية وأفرد له ديواناً خاصاً.

لكن ريجنالدي شاتيون، الذي يعرفه المسلمون بآسم أرناط، أمير الكرك صمّم على انتهاج سياسة عدوانية وخرق هدنة ١١٨٠م[1]، وعزم على الانتقام من المسلمين بل ومهاجمة الأراضي المقدسة في الحجاز وقطع طرق التجارة الإسلامية فهاجم عيذاب حيث أسر مركباً يحمل حجاجاً من جدة وقتلهم، بل ونوى دخول مدينة الرسول وإخراج جسده الشريف من ضريحه، مستغلاً انشغال صلاح الدين بحصار حلب فسارع العادل أبو بكر شقيق السلطان ونائبه على مصر بإرسال أسطول بقيادة حسام الدين لؤلؤ تعقب الأسطول الصليبي وسحقه وحصر الصليبيين وتم أسرهم وعاد بهم

(١) عقدت هذه الهدنة بين صلاح الدين وبودوان الرابع الذي تولى بعد أموري (املريك) وكان مصاب بالجذام. فلما توفي ترك الملك لابن أخته الصغير بودوان الخامس بوصاية أمير طرابلس. ريموند الثالث الصنجيلي الذي جدد الهدنة مع صلاح الدين سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م.
ـ أبو شامة: الروضتين ١٦١٢ ـ المقريزي السلوك ١/٧٧.

إلى مصر حيث شهّروا وقتلوا عقوبة لهم على قصد حرم الله وحرم رسوله[1].

وهكذا وجد صلاح الدين مبرراً قوياً لبدء عملياته ضد الصليبيين. وكانت قمة انتصاراته عند قرون حطين في فلسطين يوم ٢٤ ربيع الثاني سنة ٥٨٢هـ الموافق ٤ تموز ١١٨٧م[2] حيث فقدت المملكة اللاتينية في القدس قواتها العسكرية الرئيسية في هذه المعركة. صحيح أن كوارث سابقة نزلت على الفرنج في المنطقة العربية إذ حدث من قبل أن قتل بعض أمرائهم، كما وقع بعض ملوكهم وأمرائهم في الأسر، ونالتهم هزائم عسكرية قاسية. ولكن ما حدث في حطين كان أخطر من ذلك بكثير. فقد تم تدمير أكبر جيش صليبي أمكن جمعه منذ قيام الكيان الصليبي. كما أن المنتصر كان هو صلاح الدين الأيوبي صاحب السيادة على العالم الإسلامي بأسره.

وما حدث بعد حطين كان أشبه بنزهة عسكرية، إذ سارعت المدن والقلاع الصليبية إلى الاستسلام إما لصلاح الدين شخصياً وإما لقادة جيوشه. وتم أخذ عكا ويافا، وبيروت، وجبيل، ثم

(١) ابن جبير: الرحلة ص٢٩ ـ ٣٠.

(٢) عن حروب صلاح الدين قبل وبعد معركة حطين انظر
ـ العماد الأصفهاني: الفتح القسي ص١٧ ـ ٤٥ أبو شامة: الروضتين ٢/٧٥ ـ ٨٥.
ـ ابن شداد: النوادر السلطانية: ٦٠ ـ ٧٣ ماجد: الناصر صلاح الدين ١٣٥ ـ ١٤٨.

عسقلان وغزة[١]. وفي أواخر جمادى الآخرة سنة ٥٨٣هـ/ أيلول ١١٨٧م اتجه صلاح الدين صوب القدس. وبعد حصار قصير دخل صلاح الدين وقواته المدينة المقدسة في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ ٢ تشرين الأول ١١٨٧م بصورة إنسانية تناقض وحشية الصليبيين حين غزوها قبل أكثر من ثمانين سنة. وأقيمت خطبة الجمعة في المدينة المحررة بعد أن ظلت ممنوعة طويلاً[٢].

ولم يتبق بأيدي الصليبيين سوى صور، وأنطاكية، وطرابلس، وبعض القلاع والحصون المتناثرة على الأرض العربية في بلاد الشام.

وجاء رد الفعل الأوروبي عنيفاً، فقد مات البابا أربان الثالث (١١٨٥ ـ ١١٨٧م) من هول الصدمة حين بلغته الأنباء. ولأن الأنباء السيئة تنتشر بسرعة، فإن الرسل توجهوا إلى غرب أوروبا عقب هزيمة حطين لإبلاغ أمراء الغرب الأوروبي بأنباء الكارثة. فقد ذهب كبير أساقفة صور في جولة قادته إلى بلاطات عدد من ملوك وأمراء الغرب لكي يستنهض هممهم. وقام البابا غريغوري الثامن، الذي لم يستمر في كرسي البابوية سوى شهرين، بإرسال خطاب بابوي لكل «المؤمنين في الغرب» يذكرهم فيه بأن فقدان

---

(١) العماد الأصفهاني: الفتح القسي ٨٢ ـ ١١٥ أبو شامة: الروضتين ٢/ ٨٥ ـ ٩٥.

(٢) العماد: نفسه ص١١٦ ـ ١٣٢ أبو شامة: الروضتين: ٢/ ٩٦ وما بعدها ابن شداد: النوادر السلطانية ٢٣٥ ـ ٢٣٧ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ١٨٢ ـ ١٨٦.

الرها قبل أربعين عاماً كان يجب أن يكون نذيراً لهم. كما وعدهم بغفران كامل لخطاياهم إذا شاركوا في حملة صليبية جديدة. وفرض صياماً في كل يوم جمعة على مدى خمس سنوات قادمة والامتناع عن أكل اللحم في أيام السبت والأربعاء.

ومات البابا غريغوري الثامن في ١٧ كانون الأول سنة ١١٨٧م. تاركاً لخليفته كليمنت الثالث (١١٨٧ ـ ١١٩١م) مهمة الاتصال بملوك ألمانيا، وفرنسا، وإنكلترا، وتم فرض ضريبة مقدارها عشرة بالمائة على كل دخل، وعلى الأملاك المنقولة عرفت باسم «عشور صلاح الدين»[١]. وأخذ شارة الصليب الإمبراطور الألماني فريدريك بربروسا (١١٥٢ ـ ١١٩٠م)، وريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا (١١٨٩ ـ ١١٩٩م) وفيليب أوغسطس ملك فرنسا (١١٨٠ ـ ١١٢٣م).

في ١١ أيار ١١٨٩م تحركت قوات الإمبراطور الألماني فريدريك بربروسا، قبل القوات الفرنسية والقوات الإنكليزية. وسارت قوت الألمان عبر الطريق البري الذي سارت عليه من قبل قوات الحملة الأولى. ولكن الإمبراطور لقي حتفه في أحد أنهار آسيا الصغرى غريقاً في ١٠ حزيران سنة ١١٩٠م. وكانت تلك خسارة فادحة لحقت بالجيش الصليبي قبل أن يصل إلى هدفه. وأنتهى الأمر بالألمان إلى المشاركة الرمزية في الحملة الصليبية الثالثة أما ريتشارد الأول قلب الأسد ملك إنكلترا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا فقد وصلا بقواتهما إلى صقلية عن طريقين بحريين مختلفين

---

(١) رنسمان: الحروب الصليبية ٣/٤ ـ ٥.

حيث أمضيا شتاء سنة ١١٩٠ ـ ١١٩١م في نزاع حول الأمور الداخلية في صقلية ومع ذلك أبحر الاثنان تجاه فلسطين، حيث وصل الملك الفرنسي أولاً بسبب انشغال ريتشارد بالاستيلاء على قبرص من الحكم البيزنطي، وفي تلك الأثناء كان الناجون من سيوف صلاح الدين والمسلمين قد تجمعوا في مدينة صور التي رحبت بالمقاتلين منهم فقط. أما الملك غي دي لوزينيان، الذي أطلق صلاح الدين الأيوبي سراحه فقد عسكر بقواته الضئيلة في سهل عكا. ثم بدأت الجيوش والإمدادات الأوروبية تفد إلى بلاد الشام. وهكذا بدأت معارك الحملة الصليبية الثالثة[١].

لا تهمنا التفاصيل كثيراً، بيد أننا نود أن نشير إلى أن المعارك الأولى إنتهت بسقوط عكا في أيدي صليبيي الحملة الثالثة[٢]؛ وعاد فيليب أوغسطس إلى فرنسا. على حين بقي ريتشارد في بلاد الشام سنة كاملة، ثم اضطر إلى عقد صلح الرملة مع صلاح الدين سنة ٥٧٨هـ/١١٩٢م الذي أبقى الوضع كما هو عليه[٣].

---

(١) عن الحملة الصليبية الثالثة انظر
- العماد الأصفهاني: الفتح القسي ٤٧٧ وما بعدها أبو شامة: الروضتين ٢/١٤١ وما بعدها.
- ابن شداد: النوادر السلطانية ١٤٩ ـ ١٧٢ رنسمان: الحروب الصليبية ٣/٣٤ وما يليها.

(٢) كان سقوط عكا بيد الصليبيين يوم ١٧ جمادى الآخرة (تموز ١١٩١م).
- أبو شامة: الروضتين ٢/١٨٨ العماد: الفتح القسي ٥١٢ ـ ٥٢٤.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٣٨١ ـ ٣٨٩ رنسمان: الحروب الصليبية ٣/٧٢ ـ ٧٣.

وهكذا كان حصاد الحملة الصليبية الثالثة هزيلاً بالقدر الذي خيّب آمال الأوروبيين والفرنج المقيمين تحت سماء الشرق العربي. وسرعان ما تحولت الآمال الكبار التي عقدت على هذه الحملة إلى إحباط وآتهامات متبادلة تبادلها زعماء الصليبيين.

أما صلاح الدين فقد بقي شهوراً قليلة في بيت المقدس. ثم اتجه إلى دمشق حيث انتقل إلى جوار ربّه في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩/ ٤ آذار ١١٩٣. وبوفاة صلاح الدين الأيوبي توارت عن مسرح التاريخ شخصية ظلت ملء السمع والبصر والفؤاد. وموضع الإعجاب والهيبة من جميع معاصريه، أعداء كانوا أم حلفاء. ولكن الظروف التي أنجبته لقيادة الأمة الإسلامية كانت لا تزال قائمة. فالصليبيون ما زالوا موجودين فوق أرض الشام، كما أن خطر قدوم حملات صليبية جديدة كان لا يزال قائماً. والإحياء الايديولوجي والأخلاقي الذي كان بمثابة التعبئة المعنوية للعمليات العسكرية، كان لا يزال في طور النمو. ولا تزال قطوفه بعيدة المنال.

من الواضح أن وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي جاءت خسارة كبرى للجبهة الإسلامية المتحدة. إذ كانت نذيراً بقيام المنازعات بين ورثته حول تقسيم التركة. وكان صلاح الدين يدرك أن إدارة إمبراطورية واسعة، فيما بعد وفاته سوف يؤدي إلى نتائج خطيرة. فما من أبنائه الذين خلفهم من يملك من الخلال والمواهب ما يمكنه أن يفرض طاعته على سائر الأمراء الأيوبيين. فشخصية صلاح الدين ومهابته وحزمه، كانت كلها ضمانة لبقاء الدولة موحدة

في غياب النظم الثابتة اللازمة للاضطلاع بالسلطة بعد وفاة القائد. حقاً كانت الخلافة نظاماً له من الثبات ما يكفل استمرارها بعد وفاة متولّيها. إلاّ أن صلاح الدين لم يكن خليفة، وإنما فرض طاعته على المسلمين بقوة شخصيته. وقد آفتقر أبناؤه إلى هذه الشخصية لذا طفح تاريخ الفترة اللاحقة لوفاته بالمؤامرات والحروب المنهكة بين أفراد الأسرة الأيوبية كل يريد أن يتوسّع على حساب الآخرين ما آستطاع إلى ذلك سبيلاً. وإذا كان من الإجحاف أن لا نرى في تاريخ الأيوبيين في هذه الفترة سوى المنازعات والخلافات الأسرية، لأنه حفل أيضاً بالجهاد ضد الصليبيين. بيد أنهم، وبسبب تشتت صفوفهم لم يحسموا الأمر بوحدتهم. ولو توحدوا لعجلوا في إسدال الستار على آخر فصل من فصول الحروب الصليبية، فكان تشتتهم نعمة على بقايا الوجود الصليبي في المنطقة.

وهكذا أصبح الطابع العام لسياسة الأيوبيين، بعد صلاح الدين، يميل إلى مهادنة الصليبيين ويعني هذا أنهم تخلوا عن دورهم التاريخي ليتفرغوا لمنازعاتهم الداخلية، رغم جهود البعض منهم في مقارعة الصليبيين. لذا أتى سقوطها في مصر أولاً ثم في بلاد الشام نتيجة بروز قوة جديدة أثبتت أنها أقدر على القيام بالدور التاريخي للدولة العسكرية التي يقودها ملك محارب. هذه القوة الجديدة تجسدت في دولة المماليك التي نجحت فيما أخفق به الأيوبيون من مواجهة الصليبيين.

الفصل الثالث

مقتطفات من كتب العماد الاصفهاني

(١)

وصول العماد إلى دمشق وٱتصاله بـآل زنكي وآل أيوب في شعبان سنة ٥٦٢هـ

نقلاً عن سنا البرق الشامي للبنداري وهو مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني (ص٥٧ ـ ٦٠)

قال: وصلت إلى دمشق في أيام جلاء حسنها وٱنجلاء حزنها وعناء غنائها بالأغاريد وٱنتشاء انشائها بالمناشيد. فقدمتها في أطيب زمان ونزلت من المدرسة التي وليتها في أحسن مكان. وكان مالكها والذي يتولى ممالكها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي أعف الملوك وأتقاهم، وأنقبهم وأنقاهم، وأصلحهم عملاً وأنجحهم أملاً وأرجحهم رأياً، وأوضحهم آياً. وهو الـذي أعاد رونق الإسـلام إلى بلاد الشـام فـٱستفتـح معـاقلهـا، وٱستخلص عقائلها. وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الشام قطائع فقطعها وعفى رسومها ومنعها، ونصره الله عليهم مراراً حتى أسر ملوكهم

وبدّد سلوكهم وصان الثغور منهم وحماها عنهم، وأحْيى معالم العلوم الدوارس وبنى لمذاهب السنة والجماعة المدارس وأنشأ الخانقاهات للصوفية، وكثّرها في كل بلد، وكثّر وقوفها، وأجدّ الأسوار والخنادق وأمر في الطرقات بناء الرُّبط والخانات وهو الذي أعان على فتح مصر وأعمالها بأبناء دولته ورجالها.

وكانت بيننا وبين نجم الدين أيوب معرفة قديمة من تكريت حيث كان بها والياً فبكر إلى منزلي لتبجيلي وتحقيق تأميلي فقمت وآستقبلته وأسرعت إلى بساط الأدب فقبلته وخدمته بهذه القصيدة في آخر شوال سنة ٥٦٢هـ وأخوه أسد الدين شيركوه وولده صلاح الدين يوسف قد توجّها في هذه السنة إلى مصر وهي النوبة الثانية قلت: وأول القصيدة:

يـوم النـوى ليس من عمري بمحسـوبِ
ولا الفـراق إلى عيشي بمنسـوب
لم أنس أنسي بكـم والشمـل مجتمـع
وعيشتي ذات تطريـز وتـذهيب
أرجـوا إيابي إليكم ظـافـراً عجـلاً
فقـد ظفـرت بنجـم الـدين أيـوب

ومنها في ذكر أخيه وآبنه وما تفرس فيهما من ملك مصر وقد تم ذلك بعد سنين:

غـداً يشبّـان في الكفـار نـار وغى
بلفحهـا يصبـح الشبـان كالشيب

ويستقر بمصر يوسف وبه
تقر بعد التنائي عين يعقوب
ويلتقي يوسف فيها بإخوته
والله يجمعهم من غير تثريب
فأرجو الإله فعن قريب بنصرته
سيكشف الله بلوى كل مكروب

(٢)

ذكر وفاة أسد الدين يوم الأحد الثاني والعشرين من جمادى الآخرة وولاية صلاح الدين في الخامس والعشرين منها

(نقلاً عن سنا البرق الشامي ص ٨٠ ـ ٨١)

قال: ولما تسنّى أمر أسد الدين وعلا سنا سلطانه وملك زمام زمانه. وقرّ غِرار الكرى وغِرار الظُّبى في أجفانه، فاجأه القدر، وجاءه الكدر في صفائه، وقضى القضاء لأمله بآنقضائه. فخمدت ناره وغاص ماؤه وتوفي يوم الأحد الثاني والعشرين من جمادى الآخرة.

ولمّا فرغ العسكر بعد ثلاثة أيام من التعزية اختلفت آراؤهم وآختلطت أهواؤهم وكاد الشمل لا ينتظم والخلل لا يلتئم. فآجتمع الأمراء النورية على كلمة واحدة وأيد متساعدة، وعقدوا لصلاح الدين، وقالوا: «هذا مقام عمه» وألزموا صاحب القصر بتوليته، ونادت السعادة بتلبيته، وشرع في ترتيب الملك وتربيته، وفضّ ختوم الخزائن، وفرّق ما جمعه أسد الدين في حياته، ورأى أولياءه تحت ألويته وراياته، وأحبّوه. ولم تزل محبته غالبة على

مهابته وهو يبالغ في تقريبهم كأنهم ذوو قرابته. وما زاده الملك إلّا ترفعاً، وما زاد إلّا تأصلاً في السماح وتفرُّعاً».

وكتب له العاضد من القصر منشور الوزارة ونعته بالملك الناصر ومن ألفظاه:

«هذا المنشور في مخاطبة صلاح الدين. فيومك واسطة في المجد بين يومك وأمْسك. وكل ناد من أندية الفخار لك أن تقول فيه، ولغيرك أن يُمسك. فبُشراك أنّ أنعُمَه منكم موصولة بوالد وولد. وإن شمس ملكه بكم كالشمس أقوى ما كانت في بيت الأسد».

(٣)

وصف لمعركة حطين نقلاً عن كتاب العماد الفتح القسي في الفتح القدسي (ص ٥٨ ـ ٨٧)

دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

وكتب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الأقطار والبلاد يستدعي من جميع الجهات جموع الجهاد، وأهل للاستدعاء أهل الاستعداد وآستحضر الغزو من الحضر والبدو. وبرز من دمشق يوم السبت مستهل المحرم قبل استنجاد الجنود وآستحشاد الحشود وإحضار البيض والسود. وخيّم على قصر السلامة من بصرى، وكفّت يد رعبه الطولى من الفرنج اليد القصرى. وأقام على ارتقاب اقتراب الحجاج وقد رتّب الفرنج من الأرصاد أفواجاً على تلك الفجاج لاسيما أبرنس الكرك[١]. فلما شمّ ذلك الذئب رائحة الأسد عاود دخول حصنه حذار خروج روحه من الجسد.

ووصل الحاج في أول صفر وقد قضوا حاجهم ورضوا

(١) هو أرناط وكان اسمه قبل مجيئه إلى الشام Renauld de Chatillon. والكرك قلعة بنواحي البلقاء على جبل عال بين العقبة والبحر الأحمر وبيت المقدس.

منهاجهم، وخرجوا عن فرضهم ودخلوا إلى أرضهم وفرغ القلب من شغلهم.

وأنتظر السلطان وصول العسكر المصري المستدعى فأبطأ عليه وروده، فأمر ولده الأكبر الملك الأفضل نـور الدين علياً[١] أن يقيم على رأس الأمراء برأس الماء[٢] وتجتمع العساكر الواصلة منه تحت اللواء.

وتقدم السلطان في أتباعه وأشياعه إلى الكرك وضياعه فأقام عليها يرهق ويزهق حتى ألحق الموجود بالمعدوم، وأفقر بلد الشرك وامتلأ من الكرد والترك وسار إلى الشوبك[٣] فأسأر به شوياً وألحقه من عريه ثوباً. ووصل عسكر مصر فتلقاه بالقريتين وفرّقه في أعمال القلعتين. وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين، والملك الأفضل ولده مقيم برأس الماء في جمع عظيم من العظماء وعنده الجحافل الحافلة والحواصل الحاصلة والعساكر الكـاسرة، وهـو ينتظر أمراً من أبيه يأتيه بما يأتيه.

ولما آستمر تأخر الأمـر استمر التـأخير، وقـدم في الإقدام

(١) هو الملك الأفضل نور الدين علي، أبو الحسن: ابن صلاح الدين. ولد بمصر سنة ٥٦٥هـ. كان ملك الشام في حياة أبيه ثم من بعده. اختلف مع أخيه العزيز وعمه العـادل. وتقلبت به الأحـوال إلى أن أصبح صـاحب سميسـاط التي بقي بها إلى أن توفي سنة ٦٢٢هـ.

(٢) رأس الماء ميدان فسيح للحرب في حوران على بعد عشرين كلم من درعا.

(٣) الشوبك بلد صغير كثير البساتين. وهو على طرف الشام من جهة الحجاز وبه قلعة حصينة.

التبكير والتكبير. وآنتهز الفرصة وأحرز الحصة، وأنتخى وآنتخب الأجناد الأنجاد وأمرها بالغارة على الغرة بأعمال طبرية[١] وعليهم مظفر الدين بن زين الدين علي كوجك[٢] المقدم المقدام وعلى عسكر دمشق قايماز النجمي وعلى عسكر حلب دلدرم الياروقي[٣] فساروا مدججين وسروا مدلجين وصبحوا صفورية[٤] وساء صباح المنذرين. فخرج إليهم الفرنج في جمع شاك، وجمر ذاك. وللداوي[٥] دوي. وللأسبتاري هوي[٦] والباروني يقدم على البوار، والتركبولي[٧] يلقي نفسه على النار. وآنجلى الغبار وقد عمّ

---

(١) بلده صغيرة مطلة على البحيرة المعروفة بهذا الاسم، وهي في طرف جبل، وجبل الطور مطل عليها.

(٢) مظفر الدين كوكبوري بن زين علي كوجك بن بكتكين التركماني. وكوكبوري اسم تركي معناه ذئب أزرق، أما كوجك فمعناه اللطيف القدر، ولد في قلعة الموصل ٥٤٩/ ١١٥٤م وولي إربل بعد وفاة أبيه. اتصل بصلاح الدين فزوجه أخته الصغرى وكانت له مواقف مشهورة في حروبه. توفي بإربل سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م.

(٣) بدر الدين دلدرم الياروقي صاحب تل باشر، توفي سنة ٦١١هـ وخلفه ابنه فتح الدين.

(٤) صفورية كورة وبلد من نواحي الأردن قرب طبرية.

(٥) أطلق المسلمون اسم الداوية على فرسان المعبد وهم جماعة أسسها Hughdepayers سنة ١١٣٩م لحماية طريق الحاج المسيحي بين يافا والقدس ثم تحولت إلى هيئة حربية دينية.

(٦) جماعة من فرسان الصليبيين لها كثير من خصائص الداوية تأسست١٠٩٩م بعد استيلاء الصليبيين على القدس.

(٧) التركبولي فرسان ينحدر أصلهم من أمهات يونانيات وآباء أتراك وعرب.

الفرنج القتل والأسار، وفجع بقتل مقدمهم الاسبتار. وأفلت مقدم الـداوية ولـه حصاص[١] ووقـع الباقـون ولم يكن لهم من الهلك محاص.

وجـاءتنا البشـارة ونحن بالكـرك، فأيقنت الأمـال بـالنجـح والدرك. وسار سلطاننا الملك الناصر ووصل السير بالسري وخيّم بعشترا[٢]. فغصّت بسيول الخيول الوهاد والذرا. وأجتمع به ولده وقرّ عيناً بشبل العرين أسده. وما رأيت عسكراً أبرك منه ولا أكبر، ولا أكرت للكفر ولا أكثر. وكان يوم عرضه مُذكراً بيوم العرض. وما شـاهده إلاّ من تـلا ﴿ولله جنود السماوات والأرض﴾[٣] ولـمـا تم العرض، حُم الفرض. وتعيّن الجهـاد، وتبيّن الاجتهاد. وسمـع الفرنج بكثرة الجمع الجم، وزخرة اليم الخضم. وبرز التوحيد إلى التثليث وعرفوا أن حـزبهم مخذول وأن غـربهم مفلول، وأنه قـد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله، وإن الإيمان كله برز إلى الشرك كله.

وقد كان بينهم خلف منبعث، وحلف منتكث، ولما آستدنـوا حين حيْنهم، سعـوا في إصلاح ذات بينهم. ودخـل الملك على القومص[٤] ليتقمص له بالود الأخلـص ورمى عليه بنفسه واستبدل

---

(١) الحصاص هو الفرار وشدة العدو في سرعة.

(٢) عشترا موضع بحوران.

(٣) الآية ٤ سورة الفتح.

(٤) القومص هو الكونت ريمون الثالث صاحب إمارة طرابلس الصليبية ويلقب في بعض المصادر العربية بالصنجيلي تحريفاً للقبه الفرنسي Raymounde de saint Angilles.

وحشته بأنسه، فأصطحبا بعدما اصطلحا وأصحبا بعد ما جمحا.

وتزاور الفرنج وتوازروا، وتآمروا ما بينهم وتشاوروا. فقالوا هذا دين متى دنا منه الوهن هوى، وعود إذا عاده الأذى ذوى. فالمسيح لنا والصليب معنا والنصرانية نصرتنا. وقد عمّ بحرنا الساحل وشددْنا به المعاقد والمعاقل. وهذه الأرض تسعنا نيفاً وتسعين سنة، وما تضيق بنا هذه السنة. وسلاطين الإسلام ما صدقوا أن يسلموا إلينا ويسالمونا، ويبذلوا لنا القطائع ويقاطعونا، وطالما ناصفونا وما صافونا، وهادونا وهادنونا. وفي جمعنا تفريقهم وفي وقعتنا تعويقهم.

فقال القومص وكان محرباً مجرباً «هذا صلاح الدين لا يقاس بأحد من السلاطين لتسلطه وإقدامه على المخاوف وتورطه وإن كسركم مرة فلا يصح لكم الجبر وليس إلاّ المراوغة والمغاورة والصبر. والصواب ألاّ نخالطه ولا نباسطه، ولا نخالفه ونقبل شرائطه.

فقال له الملك «أنت قد قلبتك الأفة، وفي قلبك المخافة وأنا لا بد أن أصدمه وأصدّه وأراداده حتى أرده. وأقيم صليب الصلبوت[1] فلا يقعد عنه من أهل الأحد[2] أحداً. وأمدّ يد الأيْد[3] لجمعي فلا تمتد لأهل الجمعة يَد فقبل القومص قوله على مضض، وصح

(١) صليب الصلبوت قطعة من خشب يعتقد المسيحيون أن المسيح صلب عليه
(٢) أهل الأحد هم الصليبيون وذلك لعظم يوم الأحد عندهم.
(٣) الأيد هو القوة.

ظاهره معه على ما كان في الباطن من مرض ولما أحس منه الملك بالوفاء والوفاق اشتغلوا بالحشد والحشر، والطي والنشر وحث العزم السلطاني على قصدهم وعيّن لكل أمير موقفاً في الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه وأخرج الجاليشية[1] الرماة الكماة من كل طلب[2] وقوى الآمال بما بذله من الأموال ورحل يوم الجمعة السابع عشر شهر ربيع الآخر والتوفيق مسايره والتأييد موازره وخيّم على خسفين[3] وقد أدنى الله الخسف بالعدو وخسوفه. ثم أصبح سائراً ونزل على الأردن بثغر الأقحوانة وأحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط وأعاد الأقحوانة رياضاً نضرة وحدائق مزهرة من فرس ورد[4] وفارس كالأسد الورد[5] والفرنج قد صفوا راياتهم بصفورية[6] ورتبوا الجيش وثبتوا الجأش وحشدوا الفارس والراجل والرامح والنابل وهم هناك مقيمون لا يرومون حركة ولا يريمون. والسلطان صلاح الدين في كل يوم يسير إليهم ويشرف عليهم، ويتعرض لهم ليتعرضوا له. فربضوا وما نبضوا وقعدوا وما نهضوا. فرأى السلطان أن يطيب ريه من طبرية فأمر

---

(١) الجاليش في الأصل الراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر ثم أطلقت على مقدمة القلب في الجيش أو على الطليعة منه.

(٢) الطلب وجمعه أطلاب لفظ كردي يطلق على الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال.

(٣) خسفين قرية من أعمال حوران في الطريق إلى مصر بين نوى والأردن.

(٤) فرس ورد أي الأحمر والأشقر.

(٥) أسد ورد أي جريء.

(٦) سبق التعريف بها ص١١٥ حاشية (٤).

عساكره وأمراء جيشه وأكابره أن يقيموا قبالة الفرنج ويضيقوا عليهم واسع النهج فإن خرجوا للمصاف بادروا إلى الانتقام منهم والانتصاف وإن قصدوا إلى طبرية لصونها وأن يكونوا في عونها عجلوا الإعلام ليعجل عليهم الإقدام.

ونزل على طبرية في خواصه وذوي استخلاصه، وأحضر الجاندارية[1] والنقابين والخراسانية والحجارين وأطاف بسورها وشرع في هدم معمورها وصدقها القتال، وما صدف عنها النزال، وكان ذلك يوم الخميس. وأخذ النقابون النقب في برج فهدوه وهدموه، وتسلقوا فيه وتسلموه، ودخل الليل وصباح الفتح مسفر وليل الويل على العدو معتكر. وامتنعت القلعة بمن فيها من القومصية ست طبرية وبنيها.

ولما سمع القومص بفتح طبرية وأخذ بلده سقط في يده وخرج عن جلد جلده وسمح للفرنج بسبده ولبده وقال لهم: لا قعود بعد اليوم ولا بد لنا من وقم القوم، وإذا أخذت طبرية أخذت البلاد وذهبت الطراف والتلاد وما بقي لي صبر وما بعد هذا الكسر لي جبر.

وكان الملك قد حالفه فما خالفه ورحل بجمعه وبصره وسمعه وثعابينه وشياطينه. ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا وثابوا عن ثبات

(١) الجاندارية ومفردها جاندار وهي كلمة فارسية مركبة من كلمة جان بمعنى سلاح ودار بمعنى ماسك والجاندارية وظيفة صاحبها كالمتسلم للباب يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم الديوان (صبح الأعشى ٤/ ٢٠).

ثباتهم ووثبوا ولبوا الثار وقدموا للنزول بالدار البدار وذلك في يوم الجمعة رابع عشري شهر ربيع الآخر. فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه بما سبق به حكمه وسرّ حين أحاط بمسيرهم علمه وقال: قد حصل المطلوب وكمل المخطوب وجاءنا ما نريد وإذا صحت كسرتهم وقتلت وأسرت أسرتهم فطبرية وجميع الساحل ما دونها مانع ولا عن فتحها وازع وأستخار الله وسار، وعدم القرار. وجاء يوم الجمعة رابع عشري ربيع الآخر والفرنج سائرون إلى طبرية بقضّهم وقضيضهم قد حملوا كل عدة وكملوا كل عدة. فرتب السلطان في مقابلتهم أطلابه وقصر على مقاتلتهم آرابه. وحصل بعسكره قدامهم، ورقب على الحملة إقدامهم. وحجز بينهم وبين الماء وحلأهم عن الورد، وصدعهم بالصد، ذاك واليوم قيظ وللقوم غيظ، وقد وقدت الهاجرة، فوقدتها غير هاجرها وشربت ما كان في اداوتها فهي على الظمأ غير صابرة. وحجز الليل بين الفريقين وحجرت الخيل على الطريقين. وبات الإسلام للكفر مقابلاً والتوحيد للتثليث مقاتلاً والهدى للضلال مراقباً والإيمان للشرك محارباً وأنتظر وأستبشر رضوان(١) حتى إذا أسفر الصباح، وسفر الصباح وفجّر الفجر أنهار النهار خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار ورنت القسي وغنت الأوتار. فرجا الفرنج فرجاً وطلب طلبهم المحرج مخرجاً. فكلّما خرجوا جرحوا وبرح بهم حر الحرب فما برحوا. وحملوا وهم ظماء وما لهم سوى ما بأيديهم من

(١) يقصد أن مالك خازن النار أعدّ نفسه لاستقبال أهل الكفر والضلال وأن رضوان خازن الجنان مستبشر لاستقباله الشهداء من مجاهدي المسلمين.

مـاء الفرنْـد[١] ماء. فشـوتهم نار السهـام وأشوتهم وكلمـا ساروا وشـدّوا، أسروا وشُـدّوا، فآووا إلى جبـل حـطّين[٢] يعصمهم من طوفان الدمار، فأحاطت بحطين بوارق البوار. ولما أحس القومص بالكسرة، حسر عن ذراع الحسرة، وأقتال من العزيمة وأحتال في الهزيمة وكان ذلك قبل أضطراب الجمع وأضطرام الجمر وأحتداد الحرب وأحتدام الحر. فخرج بطلبه يطلب الخروج ومضى كومض البرق وأفلت في عدة معدودة ثم أستجرت الحرب وأشتجر الطعن والضرب وأحيط بالفرنج من حواليهم بما حووا إليهم، ودارت دائرة الدوائر عليهم. وشرعوا في ضرب خيامهم وضم ثـطامهم فحطوا على حطين مضاربهم. وترجوا خيراً فترجلوا عن الخيل وتجلدوا وتجالدوا فجرفهم السيف جرف السيل وأحاط بهم العسكر إحاطة النار بأهلها وأسر الشيطان وجنوده، وملك الملك وكنوده[٣].

وجلس السلطان لعـرض أكابـر الأسارى وهم يتهـادون في القيود تهادي السكارى. فقدم بدائه مقدم الداوية ومعه عدة كثيرة منهم ومن الإسبتارية. وأحضر الملك كي[٤] وأخوه جفري هـوك[٥]

(١) الفرند هو السيف. ويقال سيف فرند أي لا مثيل له.

(٢) حطين قرية بين طبرية وعكا بينها وبين طبرية فرسخين، وبقرية جبارة القريبة منها قبر يقال انه قبر النبي شعيب عليه السلام.

(٣) كنود جمع كند بضم الكاف، وسكون النون كلمة فارسية بمعنى الفارس الباسل والشرس الشديد.

(٤) هوغي دي لوزينيان ملك القدس أسره صلاح الدين يوم حطين ثم أطلق سراحه بعد أن أقسم أن لا يحاربه.

(٥) هوك صاحب جبيل هو Hugh II

صاحب جبيل، وهنفري والبرنس أرناط صاحب الكرك وهو أول من وقع في الشرك وكان السلطان قد نذر دمه وقال لأعجلن عند وجدانه عدمه.

فلما حضر بين يديه، أجلسه إلى جنب الملك والملك بجنبه، وقرعه على غدره وذكره بذنبه، وقال له كم تحلف وتحنث، وتعهد وتنكث، وتبرم الميثاق وتنقض وتقبل على الوفاق ثم تعرض. فقال الترجمان عنه يقول: «قد جرت بذلك عادة الملوك وما سلكت غير السنن المسلوك».

وكان الملك يلهث ظمياً، ويميل من سكرة الرعب منتشياً. فآنسه السلطان وحاوره، وفثأ سؤرة الوجل الذي ساوره. وسكن رعبه وأمن قلبه وأتى بماء مثلوج أزال لهثه وأزال من العطش ما كرثه. وناوله الابرنس ليخمد أيضاً لهبه فأخذه من يده وشربه. فقال السلطان للملك: لم تأخذ مني في سقْيه إذناً، فلا يوجب ذلك له مني أمناً. ثم ركب وخلاهما وبنار الوهل أصلاهما. ولم ينزل إلى أن ضرب سرادقه وركزت أعلامه وبيارقه وعادت من الحومة إلى الحمى فيالقه.

فلما دخل سرادقه استحضر الابرنس فقام إليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه. وحين صُرع أمر برأسه فقُطع، وجر برجله قدّام الملك حين أخرج فآرتاع وآنزعج، وساوره الهلع وسامره الجزع. فآستدعاه وآستدناه وأمنه وطمنه ومكنه من قربه وسكّنه، وقال له: ذاك رداءته أردته، وغدرته كما تراه غادرته. وقد هلك بغْيهُ بغيّه.

وصحّت هذه الكسرة، وتمت هذه النصرة يوم السبت،

وضربت ذلة أهل السبت على أهل الأحد. فما أفلت من تلك الآلاف إلاّ آحاد وما نجا من أولئك الأعداء إلاّ أعداد. وآمتلأ الملأ بالأسرى والقتلى وآنجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى وقيّدت الأسارى بالحبال واجفة القلوب، وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب.

وأما من أُسر فلم تكف أطناب الخيم لقيده وشدّه. ولقد رأيت في حبل واحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس وفي بقعة واحدة مائة أو مائتين يحميهم حارس والقوامص قنائص ووجوه الداويّة الداوية عوابس. فكم أُصْيد صيد، وقائد قيّد وقيد. ومشرك مكشر وكافر مفكر ومثلث منصف وملك مملوك وهاتك مهتوك ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت وأهلك دونه أهل الطاغوت. فلما أخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم ووهت أصلابهم. وكان الجمع المكسور عظيماً والموقف المنصور عظيماً والموقف المنصور كريماً. فكأنهم لما عرفوا إخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد من يومهم العصيب. فهلكوا قتلاً وأسراً وملكوا قهراً وقسراً. ونزل السلطان على صحراء طبرية كالأسد المصحر والقمر المبدر، وندب إلى حصنها من تسلّمه أماناً وأسكنه بعد الكفر إيماناً. وكانت الست صاحبة طبرية قد حمته ونقلت إليه كل ما ملكته وحوته، فأمنها على أصحابها وأموالها وخرجت بنسائها ورجالها ورحالها وسارت إلى طرابلس بلد زوجها القومص بمالها وحالها.

وعادت طبرية آهلة آمنة بأهل الإيمان، وعين لولايتها صارم

الديم قايماز النجمي وهو من الأكابر الأعيان. هذا والملك الناصر نازل ظاهر طبرية، وقد طب البرية، وعسكره طبق البرية.

فلما أصبح يوم الاثنين سابع عشري شهر ربيع الأخر بعد الفتح بيومين، طلب الأسارى من الداوية والإسبتارية وقال: أنا أطهر الأرض من الجنسين النجسين وجعل لكل من يحضر منهما خمسين[1] فأحضر العسكر في الحال مئين[2] وأمر بضرب أعناقهم، وآختار قتلهم على آسترقاقهم.

وكان عنده جماعة من أهل العلم والتصوف فسأل كل واحد في قتل واحد فمنهم من فرى وبرى وشكر، ومنهم من أبى ونبا وعُذر، ومنهم من يضحك منه وينوب سواه عنه. وسيّر ملك الفرنج وأخاه وهنفري وصاحب جبيل ومقدّم الداوية وجميع أكابرهم المأسورين إلى دمشق ليودعوا السجن.

---

(١) أي خمسين ديناراً.

(٢) مئين جمع مائة.

فتح القدس نقلاً عن كتاب العماد
(الفتح القسي في الفتح القدسي ١١٦ ـ ١٤٧)

ثم رحل عن عسقلان للقدس طالباً وبالعزم غالباً وللنصر مصاحباً ولذيل العز ساحباً وسار ساراً بالأحوال الحوالي والإسلام يخطب من القدس عروساً ويبذل لها في المهر نفوساً.

وطار الخبر إلى القدس فطارت قلوب من به رعباً وطاشت، وخفقت أفئدتهم خوفاً من جيش الإسلام وجاشت وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ما عاشت. وكان به من مقدمي الإفرنج باليان بن بارزان والبطرك الأعظم، ومن قلد الطائفتين الإسبتارية والداوية المقدم. فآشتغل بال باليان وآشتعل بالنيران وخمدت نار بطر البطرك. وضاقت بالقوم منازلهم فكأن كل دار منها شرك للمشرك. وأيس الفرنج من الفرج وأجمعوا على بذل المهج وقالوا هنا نطرح الرؤوس ونسبك النفوس، فهذه قمامتنا[١] فيها مقامتنا ومنها تقوم قيامتنا وإن تخلينا عنها لزمت لأمتنا ووجبت ملامتنا وقالوا دون مقبرة ربنا نموت وعلى خوف فوتها منا نفوت وعنها ندافع وعليها نقارع وتأهبوا وتباهوا ونصبوا المجانيق أمّات الأسواء على الأسوار

(١) كنيسة القيامة في القدس.

وحضّتهم قسوسهم وحرضتهم رؤوسهم. وجاءتهم بجوى السوء جواسيسهم وأخبرتهم بإقبال العساكر الناصرية منصورة الجنود، منشورة البنود، مهجورة الغمود.

وأقبل السلطان بإقبال سلطانه وأبطال شجعانه وإقبال أولاده وإخوانه. وأشبال مماليكه وغلمانه، وكرام أمرائه وعظام أوليائه. وقال: إن أسعدنا من الله على إخراج أعدائه من بيته المقدس فما أسْعدَنا فإنه مكث في يد الكفر إحدى وتسعين سنة لم يتقبل الله فيه من عابد حسنة وحلت الفرنج به متوثبة فما أدخر الله فضيلة فتحه إلا لآل أيوب يجمع لهم بالقبول القلوب وخص به عصر الإمام الناصر لدين الله ليفضله به على الأعصار، ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار.

وسار واثقاً بكمال النصرة ونزل على غربي القدس يوم الأحد خامس عشر رجب وقلب الكفر قد وجب. وكان في القدس حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون وقاتلوا أشد قتال ونازلوا أجد نزال ودامت الحرب واستمر الطعن والضرب فانتقل السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب إلى الجانب الشمالي وخيّم هنالك وضيّق على الفرنج المسالك ووسّع عليهم المهالك ونصب المجانيق ومرى من آفاتها الأفاويق[1] فكأن المجانيق مجانين يرامون ومناجيد لا يرامون وجبال تجذبها جبال

(١) جمع فيقة وهو اللبن الذي يجتمع في الضرع، ومرى أي استخرج والمقصود أنه صب عليهم المصائب.

ورجال تنجدها رجال. فما زالت تقلع بمقالعها وتقرع بمقارعها حتى تركت السور سوراً[1] وجعلت الذاب عنه محسوراً.

وخرق الخندق وحفز الزحف وظهر للإسلام الفتح وللكفر الحتف، وأخذ النقب. وأسلم البلد وقطع زنار خندقه وبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه. وطلب الأمان لقومه وتمنع السلطان وتسامى في سومه. وقال: لا أمن لكم ولا أمان وما هوانا إلاّ أن نديم لكم الهوان وغداً نملككم قسراً ونوسعكم قتلاً وأسراً. وأبى في تأمينهم إلاّ الاباء فتعرضوا للتضرع وتخوفوا وخوّفوا عاقبة التسرع وقالوا: إذا أيسنا من أمانكم وخفنا من سلطانكم وخبنا من إحسانكم وأيقنا أنه لا نجاة ولا نجاح ولا صلح ولا صلاح ولا سلم ولا سلامة فإنا نستقتل فنقاتل قتال الدم ونقابل الوجود بالعدم وأنا نحرق الدور ونخرب القبة ونقلع الصخرة ونقتل كل من عندنا من أسارى المسلمين وهم ألوف. وأما الأموال فإنا نعطبها ولا نعطيها، وأما الذراري فإنا نسارع إلى إعدامها ولا نستبطيها. فأية فائدة لكم في هذا الشح ولا يصلح السوء سوى الصلح.

فعقد السلطان محضراً للمشورة وأحضر كبراء عساكره المنصورة وشاورهم في الأمر وحاورهم في السر والجهر وفاوضهم في المصالحة المربحة فقالوا قد خصك الله بالسعادة وأخلصك لهذه العبادة ورأيك راشد وكلنا لك في اغتنام فتح هذا الموضع الشريف مناشد واستقر بعد مراودات ومعاودات، ومفاوضات وتفويضات، وضراعات من القوم وشفاعات على قطيعة تكمل بها

(١) أي هالكاً.

الغبطة وتحصل عنها الحوطة، وأشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم، على أنه من عجز بعد أربعين يوماً عما لزمه؛ أو آمتنع منه وما سلمه، ضرب عليه الرق وثبت في تملكه لنا الحق وهو عن كل رجل عشرة دنانير وكل امرأة خمسة وكل صغير أو صغيرة ديناران. ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدما الداوية والإسبتار في الضمان.

وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء وقام بالأداء ولم ينكل عن الوفاء. فمن سلّم خرج من بيته آمناً ولم يعد إليه ساكناً.

وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة وردّوه بالرغم رد الغصب لا الوديعة. وكان فيه أكثر من مائة ألف إنسان من رجال ونساء وصبيان. فأغلقت دونهم الأبواب، ورتب لعرضهم وآستخراج ما يلزمهم النواب. ووكل بكل باب أمير ومقدم كبير، يحصر الخارجين ويحصي الوالجين. فمن آستخرج منه خرج ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج.

ولو حفظ هذا المال حق حفظه لفاز منه بيت المال بأوفر حظه، لكنما تمّ التفريط وعمّ التخليط فكل من رشى مشى، وتنكب الأمناء نهج الرشد بالرشا. فمنهم من أدلي من السور بالحبال ومنهم من حمل مخفياً في الرحال ومنهم من غيرت لبسته فخرج بزي الجند ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد.

وكان السلطان قد رتب عدة دواوين، في كل ديوان منها عدة من النواب من المصريين ومنهم من الشاميين، فمن أخذ من أحد

الدواوين خطأ بالأداء انطلق مع الطلقاء بعد عرض خطه على من بالباب من الأمناء والوكلاء، فربما كتبوا خطأ لمن نقده في كيسهم فكانوا شركاء بيت المال لا أمناء، وخانوه على ما حصل لكل من النفع وما أخر غناه، ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة ألف دينار، وبقي من بقي تحت رق وأسار ينتظر به انقضاء المدة المضروبة والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة.

وأتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه المعراج. وجلس السلطان للهناء للقاء الأكابر والأمراء والمتصوفة والعلماء. وهو جالس على هيئة التواضع وهيبة الوقار بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار. وتسامع الناس بهذا النصر الكريم والفتح العظيم فوفدوا للزيارة من كل فج عميق وسلكوا إليه في كل طريق وأحرموا من البيت المقدس إلى البيت العتيق.

وشرع الإفرنج في بيع الأمتعة وأستخراج ذخائرهم المودعة وباعوها بالمجان في سوق الهوان، وتقاعد الناس بهم فأبتاعوها بأرخص الأثمان وباعوا بأقل من دينار كل ما يساوي أكثر من عشرة وجدّوا في ضم ما وجدوا من أموالهم منتشرة وكنسوا كنائسهم وأخذوا منها نفائسهم وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر من صفائح التبر ومصوغات العسجد ومصنوعات اللجين، وجمع ما كان في قمامة من الجنسين والنسجين.

فقلت للسلطان: «هذه أموال وافرة وأحوال ظاهرة تبلغ مائتي ألف دينار والأمان على أموالهم لا أموال الكنائس والأديار فلا نتركها في أيدي هؤلاء الفجار» فقال: إذا تأولنا عليهم نسبونا إلى الغدر

وهم جاهلون بسر هذا الأمر. ونحن نجريهم على ظاهر الأمان ولا نتركهم يرمون أهل الايمان بنكث الأيمان بل يتحدثون بما أفضناه من الإحسان.

فتركوا ما ثقل وحملوا ما عزّ وخفّ. ونفضوا من تراب تراثهم وقمامة قمامتهم الكف وآنتقل معظمهم إلى صور. وبقي منهم زهاء خمسة عشر ألفاً امتنعوا عن مشروع الحق فآختُصّوا بمشروط الرق. فأما الرجال وكانوا في تقدير سبعة آلاف فإنهم ألفوا ذلاً لم يكونوا له بآلاف، وأحصيت النساء والصبيان ثمانية آلاف نسمة عادت بيننا مقتسمة.

ولما تقدس القدس من رجس الفرنج أهل الرجز، وخلع لباس الذل ولبس خلع العز، أبى النصارى بعد أداء القطيعة أن يخرجوا وتضرعوا في أن يسكنوا ولا يزعجوا وبذلوا خِدماً وخدموا ببذول. وقابلوا كل ما ألزموا به بآلتزام وقبول وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

ولما تسلم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب وحتم به أمر الإيجاب. وكان الداوية قد بنوا في وجهه جداراً وتركوه للغلّة هرياً(١). وقيل كانوا آتخذوه مستراحاً عدواناً وبغياً. وكانوا قد بنوا من غربي القبلة داراً وسيعة وكنيسة رفيعة فأوعز برفع ذلك الحجاب وكشف النقاب عن عروس المحراب. وهدم ما قدامه من الأبنية وتنظيف ما حوله من الأفنية، بحيث يجتمع الناس في الجمعة في

---

(١) هرياً أي إهراء أو مخزناً للحبوب.

العرصة المتسعة. ونصب المنبر وأظهر المحراب المطهر ونقض ما أحدثوه بين السواري. ونطق الأذان وخرس الناقوس وحضر المؤذنون وغاب القسوس وعاد الإيمان الغريب منه إلى موطنه فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان أصبح الناس يسألون في تعيين الخطيب السلطان. فنصب السلطان الخطيب بنصه وأبان عن اختياره بعد فحصه وأوعز إلى القاضي محيي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين القرشي بأن يرقى ذلك المرقى.

ذكر مسير الفرنج إلى عكا والنزول عليها ورحيل السلطان قبالتهم إليها (الفتح القسي في الفتح القدسي ٢٩٦ ـ ٣٠٣)

وصل الخبر يوم الأربعاء ثامن رجب، أن العدو قد ركب. وأجلب بخيله ورجله، وطار بجراد رجله ودب دباه في رجْله، وسرحت ذئابه ونبحت كلابه. وجاش عرام جيشه العرمرم، وطاش إلى أهل الجنة بأهل جهنم، ونوى القرب من النواقير[1] وأضرم بنار السعير مساعي المساعير. وهو على قصد عكا يجري إلى المدى برأي جمعه المدامير[2] وأن نفراً منهم نفر، وسبق إلى النواقير وعبر، ونزل بإسكندرونة وآستباح طرقها المصونة. وهناك من المؤمنين رجال يحمون طرف الثغر ويضمون نشر الأمر، ويصمون نحر الكفر، ويجبون غارب الشر، ويجوبون جانب البحر ويطوفون للحراسة ويطولون بالحماسة.

فلما رأوا مقدمة الفرنج واقعوها ودافعوها وعاقروها وقارعوها وأهلكوا عدة وملكوا عدة. ولما تكاثرت أعداد الأعداء استظهروا

(١) النواقير جمع نقيرة وهي فرجة في جبل بين عكا وصور على ساحل البحر المتوسط.

(٢) أي أجمعوا على رأي كان فيه دمارهم.

بالانكفاء عن الأكفاء. وتدافعوا بعد ما دافعوا، وتراجعوا بعدما راجعوا. وأطلع السلطان على خبرهم وعرف نفور نفرهم. فكتب إلى العساكر الدانية بالدنو، للعدو على العدو. فتوافدوا على الميعاد وتوافدوا للاعتضاد وتوافروا للجهاد، وتوافقوا في إدناء المراد بأبعاد المرّاد ورحل الفرنج ثاني عشر رجب يوم الأحد، وافية المدد وافرة العدد ونزلت على عين بصة(١). ولقد شاهد دركات جهنم من شاهد تلك الرحاب المعنقة. ووصل أوائلهم إلى الزيب، وأجابوا داعية الصليب.

فأصبح السلطان يوم الاثنين على الرحيل، ووصل العنق بالذميل، وكان الثقل قد سار من الليل وجرى على طريق الملاحة(٢) في الأودية جري السيل وسرنا على جب يوسف(٣) إلى المنيّة آخذين بالحزم تاركين للونية. وجئنا بمصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفركنا(٤) وبتنا بها تلك الليلة وسكنا. ثم أصبح يوم الأربعاء خامس عشر الشهر ونزل على جبل الخروبة(٥) وأشرف على العدو النازل ودنا حزب الحق من حزب الباطل وكان عدة من الأمراء ساروا على طريق هونين للفرنج مقابلين مقاتلين، فوصلوا في هذا اليوم، وقد نالوا في طريقهم من القوم. ونزلنا في

---

(١) عين بصة موضع بين الطور والزيب.

(٢) الملاّحة بقعة قريبة جداً من الركن الشمالي الغربي لبحيرة الحولة.

(٣) جب يوسف على بعد اثني عشر ميلاً من طبرية بين سنجل ونابلس.

(٤) كفركنا بلد بفلسطين بها قبر يونس عليه السلام وقبر أبيه.

(٥) الخروبة تل وجبل كذلك وحصن مشرف على عكا.

أرض صفورية بالأثقال وتجرد الرجال منها إلى المخيم السلطاني للقتال.

وكان من رأي السلطان عند رحيل الفرنج على قصد عكا، أن يسايرهم في الطريق ويواقعهم عند المضيق. ويقطعهم عن الوصول ويدفعهم عن النزول. فإنهم إذا نزلوا صعب نزالهم وأتعب قتالهم فقالوا له: بل نستقيم على السنن القويم ونطلبهم طلب الغريم، وما أهون قطعهم إذا وصلنا وأعجل إدبارهم إذا أقبلنا والطريق قبالتهم وعر وللمقصر عن التطاول فيه عذر. فنمضي على أسهل الطرق ونسد فلقهم بالفيلق. وتبين لنا بالعاقبة أن الرأي السلطاني كان أصوب، فإن نزالهم عند نزولهم صار أصعب. ونزل الفرنج على عكاء من البحر إلى البحر محتاطين بالانحصار، محيطين بها للحصر. وضرب الملك العتيق كي خيمته على تل المصلبة، وربطت مراكبهم بشاطىء البحر فكانت كالآجام المؤتشبة.

وبعث السلطان ليلة وصوله إلى مدينة عكاء بعثاً دخلها على غرة من العدو. وتواصلت البعوث إليها التي هي على التزايد والنمو حتى آستظهرت بقوتها، وقويت بآستظهارها. فلما آجتمعت العساكر وآتصلت الأوائل بالأواخر، عبى جيشه طلباً طلباً، وميمنة وميسرة وجناحاً وقلباً. وسار بهيئته وهيبته، وأنزل العسكر على تعبيته. ونزل بمرج عكاء على تل كيسان[١] في ذوي اختصاصه، وقد نصب من خيامه عليه اشراك أقناصه. وآمتدت الميمنة إلى تل

(١) تل كيسان موضع في برج عكا.

العياضية والميسرة إلى نهر الماء العذب فـدارت رحى الحرب ودام كر الكرب، ووافى للأنجاد عسكر الشرق ماضي الغرب. وصرنا محاصرين للمحاصرين. مكابرين للمكابرين، قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط وأحدقنا بأولئك الكفرة إحـاطة النـار بأهلهـا، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها. ورتبنا بالزيب والنواقير رجالاً يصدونهم عن سبلها. ودمنا نصابحهم بالقتال ونماسيهم، ونعاودهم ونباديهم،ونصدهم ونصدمهم، ويوجدهم البحر ونعدمهم. وما زالت مراكبهم تتواصل ومناكبهم تتطاول. وأهل الجزائر من أهل الجزائر متوافرون متوافدون. قد لفحوا وجـه البحر بنُقب السفن وجـذبوا بالقلوس على ثبجه عران الرغن وبقي القتال بينهم وبين اليزكية، كل بكرة إلى العشية، إلى أن وصل الملك المظفر تقي الدين عمر ومـظفر الـدين كوكبـوري ـ الأسد الغضنفر ـ فـآستـظهـرنـا بهم وبعسكرهما الدهم، وآستدارت الفرنج بعكاء كالـدائرة بـالمركـز وزادوا من جـانبنا في التحـرس والتحـرز. ومنعـوا من الـدخـول والخروج، ولجّ أولئك العلوج في ضبط طريق الولوج. وذلك في يـوم الأربعاء والخميس آخـر رجب لانسلاخـه والإسلام ينـادينـا بآستصراخه.

وأصبح السلطان يوم الجمعـة مستهل شعبـان وقد استهلت راياته واستقلت آياته وعز عزمه وعلا حكمه وما منـا إلاّ من أسرج الجرد وجرّد السريجيّات وعاج بالأعوجيات. وأقبلنا والنصر مقبل والظفر متهلل. والميمنة والميسرة باليمن واليسر ممتدتان، والقلب له من التأييد والتمكين جناحان. واتفقت الآراء، وأجمع الأمـراء

على أن يكون اللقاء وقت صلاة الجمعة، عند قبول الدعوات المرتفعة. وأحاط العسكر الإسلامي بجوانبهم، وكدّر عليهم صفو مشاربهم وقلّل مضاء مضاربهم، وهم في مواضعهم واقفون وعلى مصارعهم عاكفون، وفي مواطنهم ثابتون وعلى مواطئهم نابتون كالبنيان المرصوص ما فيه خلل وكالحلقة المفرغة ما إليها مدخل، وكالسور المحيط ما عليه متسلق وكالجبل الأشم ما فيه متعلق.

فزحفنا إليهم فلم يبرحوا وقربنا منهم فلم ينزحوا. وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها ودامت الحرب قائمة وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه وخلف نظامه، حتى دخل الليل وحجز ووعد النصر ما نجز، وحزب الحق ما عجز.

فأصبحوا يوم السبت على الحرب كما أمسوا، وزادوا على ما جرى أمس وألهوا عنه وأنسوا. فما طلعت شمس الظهيرة حتى طلعت شمس الظهور، وحمل الناس من جانب البحر شمالي عكاء حملة شديدة، كانت لمن قدامهم من الفرنج مبيدة. وفرشوهم على تلك التلول. وانهزم الفرنج إلى تل المصلبة نحو القبة وثبتوا عند الوثبة وأخلوا ذلك الجانب وخلوا تلك المذاهب. فانفتح لنا طريق عكاء ودخلها الرجال وحملت إليها الغلال ودخل إليها العسكر وخرج وانكشف ضيق حصرها وانفرج وذلك من باب القلعة الوسطى إلى باب قراقوش واستطرقت إليها العساكر والجيوش.

ذكر نساء الفرنج
(الفتح القسي في الفتح القدسي ص٣٤٧ - ٣٤٩)

وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة إفرنجية مستحسنة، متحلية بشبابها وحسنها متزينة. قد اجتمعن من الجزائر، وانتدبن للجزائر. واغتربن لإسعاف الغرباء، وتأهبن لإسعاد الأشقياء، وترافدن على الإرفاق والإرفاد، وتلهبن على السفاح والسفاد. من كل زانية نازية، زاهية هازية، عاطية متعاطية، حاظية خاطية، متغنية متغنجة، متبرزة متبرجة، راقعة خارفة، مارقة رامقة، قاسرة سارقة، فارجة فاجرة، فاتنة فاترة، مشتهاة متشهية، ملهاة متلهية، متفننة متفتية، ناشية منتشية، متشوقة متسوقة، مقترحة محترقة، متحببة متعشقة، حمراء مرحاء، نجلاء كحلاء، عجزاء هيفاء، غناء لغاء، زرقاء ورقاء، متخرقة خرقاء.

تسحب غفارتها، وتسحر بنضارتها نظارتها، وتتثنى كأنها غصن وتتجلى كأنها حصن وتميس كأنها قضيب، وتزيف وعلى لبتها صليب. وهي بائعة شكْرها بشكرها، باغية كسرها في سكرها. فوصلن وقد سبلن أنفسهن، وقدمن للتبذل أصونهن وأنفسهن وذكرن أنهن قصدن بخروجهن تسبيل فروجهن. وأنهن لا يمتنعن من العزبان ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان، وتفردن بما ضربنه من الخيم والقباب وانضمت إليهن أترابهن من الحسان

الشواب. وفتحن أبواب الملاذ، وسبلن ما بين الأفخاذ. وبحن بالإباحة، ورحن إلى الراحة وأزحن علة السماحة ونفقن سوق الفسوق، ولفقن رتوق الفتوق وتفجرن بينابيع الفجور، وتحجرن بنزو الفحول منهن على الحجور، وعرضن الإمتاع بالمتاع، ودعون الوقاح إلى الوقاع.

وركبن الصدور على الاعجاز، وسمحن بالسلعة لذوي الإعواز، ودمن على تقريب خلاخلهن من الأقراط، ورمن فرشهن على بساط النشاط. وتهدفن للسهام، وتحللن للحرام، وتعرضن للطعان، وتضرعن للاخدان. ومددن الرواق وحللن حين عقدن النطاق وصرن مضارب للأوتاد واستدعين النصول منهن إلى الاغماد. وسوين أراضيهن للغراس واستنهضن الحراب إلى التراس. واستنفرن المحاريث إلى الحرث، ومكن المناقير من البحث وأذن للرؤوس في دخول الدهاليز، وجرين تحت راكبيهن على ضرب المهاميز. وقطعن التكك، وطبعن السكك. وضممن الأطيار في أوكار الأوراك، وجمعن قرون كباش النطاح في الشباك. ورفعن الحجر عن المصون، وترفعن عن ستر المكنون، ولففن الساق بالساق، وشفين غليل العشاق.

وتشاجرن على الأشجار، وتساقطن على الثمار، وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة، لا سيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبة. وسقين الخمر وطلبن بعين الوزر الأجر. وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية، وعجبوا كيف تعبدوا بترك النخوة والحمية.

وأبق من المماليك الأغبياء والمدابير الجهلاء، جماعة جدّ

بهم الهوى، واتّبعوا من غوى. فمنهم من رضي اللذة الذلة، ومنهم من ندم على الذلة فتحيّل في النقلة. فإن يد من لا يرتد لا تمتد وأمر الهارب إليهم لاتهامه يشتد، وبـاب الهوى عليـه يشتد. ومـا عند الفرنج على العزباء إذا أمكنت منها الأعزب حرج، وما أزكاها عند القسوس إذا كان للعزبان المضيقين من فرجها فرج. ووصلت أيضاً في البحر امرأة كبيرة القدر، وافرة الوفـر، وهي في بلدها مـالكة الأمر. وفي جملتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم، وغلمانهم وأشياعهم. وهي كافلة بكل ما يحتـاجون إليـه من المؤونة، وهم يركبون بركبانهـا ويحملون بحملاتها، ويثبون لوثباتها، وتثبت ثباتها لثباتها.

وفي الفرنج نساء فوارس، لهن دروع وقوانس. وكن في زي الرجال ويبرزون في حومة القتال، ويعملـن عمل أرباب الحجـا وهن ربات الحجال. وكل هذا يعتقدنه عبادة وفي يوم الواقعة قلعت منهن نسوة، لهن بالفرسان أسوة، وفيهن مع لينهن قسوة وليست لهن سوى السوابغ كسوة. فما عرفن حتى سلبن وعـرين، وفيهن عدة استبين واشترين. وأما العجائز فقـد امتلأت بهن المـراكز؛ وهن يشـددن تارة ويـرخين، ويحـرضن وينخين. وقلن ان الصليب لا يرضى إلاّ بالإباء، وأنه لا بقاء له إلا بالفناء. وأن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء. فانظر إلى الاتفاق في الضلال بين الرجال منهم والنساء. فهن للغيرة على الملة مللْن الغيرة، وللنجاة من الحيـرة ناحَيْنَ الحيرة. ولعدم الجلد عن طلب الثأر تجلدن، ولما ضامَهُن من الأمر تبلّهن وتبلّدن.

ذكر الهدنة العامة وما ذكره العماد عن صلح الرملة
(الفتح القسي في الفتح القدسي ٦٠٣ ـ ٦٠٥، ٦١٠)

لما عرف ملك الأنكتير أن العساكر قد اجتمع، والحزق عليه قد اتسع؛ وأن القدس قد امتنع وأن العذاب به وقع، خضع وخشع، وقصر الطمع، علم أنه لا قبل له بمن أقبل، ولا ثبات مع الجحفل وقد حفل، فأظهر أنه إن لم يهادن أقام واستقتل، وللشر استقبل. وأنه عازم على العودة إلى بلاده، لأمور مردها يعود إلى مراده. والبحر قد آن أن يمنع راكبه، ويسم بالأمواج غواربه. «فإن هادنتم وطاوعتم تبعت هواي، وإن حاربتم وعصيتم ألقيت ههنا عصاي واستقرت نواي. وقد كل الفريقان، وملّ الرفيقان. وقد نزلت عن القدس وأنزل عن عسقلان. ولا تغتروا بهذه العساكر المجتمعة من الجهات، فإن جمعها في الشتاء إلى الشتات ونحن إذا أقمنا على الشقاق والشقاء، رمينا أنفسنا على البلاء. فأجيبوا رغبتي، وأصيبوا محبتي، وأودعوني العهد ودعوني، وأودعوني العهد وودعوني».

فأحضر السلطان أمراءه المشاورين وشاورهم في الأمر وأظهرهم على السر. واستطلع ما عندهم من الرأي، وسرد لهم الحديث من المبادىء إلى الغاي، وقال لهم: «نحن بحمد الله في قوة، وفي ترقب نصرة مرجوة، فأنصارنا المهاجرون إلينا ذوو دين وكرمٍ ومروة. وقد ألفنا الجهاد، وألفينا به المراد. والفطام عن

المألوف صعب. وما لنا شغل ولا مغزى إلاّ الغزو وما نحن ممّن يشوقه اللعب ويسوقه اللهو، وإذا تركنا هذا العمل فما العمل؟ وإذا صرفنا عنهم الأمل ففيم الأمل، وأخشى أن يأتيني في حالة بطالتي الأجل، ومن ألف الحلية كيف يألفه العطل، رأيي أن أخلف رأي الهدنة ورائي، وأقدم بتقديم الجهاد اعتزازي وإليه اعتزائي. وما أنا بطالب البطالة، فأرغب عن استحالة هذه الحالة، وقد رزقت من هذا الشيء فأنا ألزمه، ولي بتأييد الله من الأمر أجزمه وأحزمه فقالوا له: الأمر على ما تذكره، والتدبير ما تراه والرأي ما تدبره، ولا يستمر إلاّ ما تمره من الأمر، ولا يستقر إلاّ ما تقرره، وإن التوفيق معك في كل ما تعقده وتحله وتورده وتصدره. غير أنك نظرت في حق نفسك من عادة السعادة، وإرادة العبادة. واقتناء الفضيلة الراجحة والاعتناء بالوسيلة الناجحة، والأنف من العطلة والعزوف للعزلة وأنك تجد من نفسك القوة والاستمساك، ويقينك يعرفك بالأماني الإدراك. فانظر إلى أحوال البلاد فإنها خربت وتشعثت، والرعايا فإنها تعكست وتعلثت، والأجناد فإنها نصبت ووصبت، والجياد فإنها عطلت وعطبت، وقد أعوزت العلوفات، وعزت الأقوات، وبعدت عنا العمارات وغلت الغلات. ولا جلب إلاّ من الديار المصرية مع ركوب الأخطار المهلكة في البرية. وهذا الاجتماع مظنة التفريق، ولا يدوم هذا الاتساع مع هذا الضيق. فإن المواد منقطعة، والجواد ممتنعة والمترب قد ترب، والمعدم قد عطب، والتبن أعز من التبر، والشعير ليته وجد وإن كان غالي السعر وهؤلاء الفرنجة إذا يئسوا من الهدنة، بذلوا وسعهم في استخراج المكنة واستنفاد المنة. وصبروا

على المنية في طريق الأمنية، وأبوا في الإقبال على دينهم قبول الدنيّة والصواب أن نقبل من الله الآية التي أنزلها وهي قوله ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ وحينئذٍ تعود إلى البلاد سكانها وعمارها وتكثر في مدة الهدنة غلالها وأثمارها. وتستجد الأجناد عدتها، وتستريح زمان السلم ومدتها. فإذا عادت أيام الحرب عدنا، وقد استظهرنا وزدنا. ووجدنا القوت والعلف، وعدمنا المشاق والكلف. ففي أيام السلم نستعد للحرب ونستجد أدوات الطعن والضرب. وليس ذلك تركاً للعادة وإنما هو للاستجداء والاستجداد والاستجادة على أن الفرنج لا يفون، وعلى عهدهم لا يقفون. فاعقد الهدنة لجماعتهم لينحلوا ويتفرقوا وقد شقوا بما لقوا. وما يقيم لهم بالساحل من يقدر على المقاومة ويستقل بالملازمة، وما زال الجماعة بالسلطان حتى رضي، وأجاب إلى ما اقتضى. وكانت قد بقيت بين العسكرين منزلة واحدة، والعجاجات على الطلائع متعاقدة. فلو رحلنا رحلناهم، وعلى الهلك أحلناهم. لكن مراد الله غلب وأجيب ملك الأنكتير من الصلح إلى ما طلب فحضرت لإنشاء عقد الهدنة وكنت نسختها وعيّنت مدتها وبيّنت قضيتها، وذلك في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين الموافق لأول أيلول لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر. وحسبوا أن وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحر وتتصل أمدادهم على الحشد والحشر، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر والسهل والوعر، والبدو والحضر. وجُعل لهم من يافا إلى قيسارية إلى عكا إلى صور، وأبدوا بما تركوه من البلاد التي كانت معهم الغبطة والسرور. وأدخلوا في

الصلح طرابلس وأنطاكية والأعمال الدانية والنائية.

ذكر ما جرى بعد الصلح

عاد السلطان إلى القدس وعادت عادة سعادته واشتغل بإتمام السور والخندق وتكميل عمارته، وفسح للفرنج كافة بزيارة قمامة. فجاؤوا ووجدوا الأمن والسلامة. وزاروا ورازوا ولما عجزوا أن يحتازوا سألوا أن يجتازوا. ففسح لفريق من بعد فريق. وتوافوا في طريق وراء طريق وقالوا: «إنما كنا نقاتل على هذا الذي وجدناه مع الصلح، وما زلنا سائرين في ليل القصد حتى وصلنا إلى الصبح».

وكان ملك الأنكتير راسل السلطان وسأل منع الفرنج من الزيارة إلّا لمن وصل معه كتابه أو رسوله، ورغب في أن يجاب سؤاله في ذلك ويصاب سوله. فقيل: مقصوده أنهم يرجعون إلى بلادهم على حسرة الزيارة فيبقون على الاستنفار والاستثارة. ومن زار برد قلبه وتنفّس كربه، ولم يبق له في مشقة العود أرب. ولم يتصل له بهذه الديار سبب فكان الأمر كما حسب، فاعتذر إليه في الجواب الذي كتب. وقيل له: أنت أولى بمنعهم وما يقتضي كرمنا أن نرد الوفود، ولا نبلّغ من يقصدنا المقصود.

ومرض ملك الأنكتير مرضاً ألهاه عمّا اشتهاه، ولم يبلغ في هذا الغرض إلى منتهاه وركب البحر وأقلع، وعجل في مفارقته وأسرع. وسلم الأمر إلى من يليه، وهو الكندهري ابن أخيه من أمه، وهو ابن أخت ملك إفرنسيس من أبيه وتبعه فرنج الجزائر. ولم يقف الأول منهم على الآخر.

أحوال السلطنة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين وذلك نقلاً عن رسالة العماد الكاتب المعروفة بالعتبى والعقبى. وهي مفقودة
باستثناء ما حفظه أبو شامة منها في الروضتين
(أبو شامة: الروضتين ٢/٢٢٨ - ٢٣١).

وأما رسالة العماد الكاتب المعروفة بالعتبى والعقبى التي أشار إليها في آخر كتاب البرق فيما جرى بعد وفاة السلطان إلى سنة اثنتين وتسعين، فقد وقفت عليها وحاصل ما فيها أن قال: لما توفي السلطان، رحمه الله، وملكت أولاده كان العزيز بمصر يقرّب أصحاب أبيه ويكرمهم والأفضل بدمشق يفعل ضد ذلك، يقرّب الأجانب ويبعد الأقارب. وأشار عليه بذلك جماعة داروا حوله كالوزير الجزري الذي استوزره، قلت: هو الضياء ابن الأثير، أخو عز الدين المؤرخ ومجد الدين وفيه يقول الشهاب فتيان الشاغوري:

متى أرى وزيركم ... وما له من وزر
يقلعه الله فذا ... أوان قلع الجزر

قال العماد: فلما طلب من الأمراء أن يحلفوا له أيماناً وهم قد أضمروا الحنث فيها، ولم يخفَ ذلك عليه، ولمّا رأى الفاضل

أمور الأفضل مختلة تركه وسار إلى مصر. وشرع الوزير الجزري في تفريق العصبة الناصرية. وما منهم إلا من فارق إلى الديار المصرية.

وكان قد أشير على الأفضل بإخلاء البيت المقدس لنواب العزيز بأعماله، حذراً من تكاليفه وأثقاله. فأجاب إلى ذلك. وقد كانت نابلس وأعمالها قد وقف السلطان ثلثها على مصالح القدس، وباقيها على ابن الأمير علي بن أحمد المشطوب. فشاركه أحد الأمراء الأكراد فيه، فمدّوا أيديهم إلى الوقف وساءت سيرتهم وتخوّفوا من إنكار الملك العزيز عليهم. فلجؤوا إلى الأفضل. فأفضلَ عليهم وسكن إليهم. فتأثر الملك العزيز بذلك. وأقوى الأسباب فيما حدث من النفار، نفار الأمراء الناصرية الكبار ومفارقتهم دمشق إلى مصر على سبيل الاضطراب والاضطرار. فأعزّهم العزيز ورفعهم. فاتفقوا على أن تكون كلمة الإسلام مجتمعة على الملك العزيز لإحياء سنّة والده في الجود والبأس والكرم. ومن جملة الأسباب الباعثة تسلم الفرنج ثغر جبيل من بعض مستحفظيه وضعف الأفضل عن استخلاصه. فقيل للعزيز: إن أنت توانيت استولت الفرنج على البلاد. فخرج العزيز بعساكره. وبلغ الأفضل، فضاق صدره، واجتمع بمن في خدمته من الأمراء برأس الماء. وأراد أن يستعطف قايماز النجمي. وكان في إقطاعه بالسواد، وكان بينه وبين الأفضل شقاق وعناد، فأرسل إليه فلم يقبل ورحل إلى عسكر العزيز. ورأى الأفضل أن يكتب إلى أخيه بكل ما يحب من إعلاء كلمته والاجتماع عليه ويكون الأفضل من بعض

القائمين بين يديه، طلباً لتسكين الفتن، ورغبة في ذهاب الإحن، فأشير عليه بغير الصواب، وقيل: أنت الكبير وإليك التدبير فجدّ واجتهد ولا يعلم أصحابك بهذا الخور الذي داخلَك والجبن الذي نازلَك، ونحن بين يديك، وكلنا عاقدون بالخناصر عليك. ووصل رسول الملك الظاهر والكتب من الملوك الأكابر بالإنجاد المتظاهر للأفضل: وسيّر الأفضل إلى عمه العادل، وهو بحران والرها كتباً ورسلاً. فلما أبطأ عليه سيّر عثمان الزنجبيلي على نجيب ليُسرع ويأتي به عن قريب، وكتُبه واصلة بعزمه على نصره ونجدته وذلك في أوائل جمادى الأخرة من شهور سنة تسعين.

ولم يشعر الأفضل إلاّ والعزيز بعساكره قد وصل إلى الفوار، فعجّل الرحيل وقد خالطت عساكر العزيز ساقة جيش الأفضل. فأسرع ودخل دمشق يوم الجمعة خامس من جمادى. ونزل العزيز يوم السبت بالكسوة، ونزل على دمشق يوم الأحد. فلم يزل الأفضل يمانع ويدافع حتى وصل عمه العادل فكتب إلى العزيز يسأله الاجتماع فتواعدا واجتمعا راكبين بصحراء المزّة. فعذله في أخيه واستنزله عما كان فيه. فقال: عليّ رضاك واتباع هواك. وقال: نفّس عن البلد الخناق وكان قد بلى المدينة منهم بما لا يُطاق، من قطع الأنهار وقطف الثمار. فتأخر العزيز إلى صوب داريا والأعوج.

وكان قد اجتمع عند الأفضل من الملوك؛ عمه العادل، والمجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص، والأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، والمنصور ناصر الدين

محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة. ثم وصل الملك الظاهر غياث الدين غازي ابن السلطان. فاتفقوا على عقد يؤكد، وعهد يمهّد ورحل العزيز إلى مرج الصفر لكوْن المقام به أرفق. فمرض حتى أيس منه. ثم أفاق وأرسل من جانبه الأمير فخر الدين أياز جركس، واعتمد عليه في هذه النوبة. فوصل إلى العادل في تعديل الأمور، فتقرّر بينهم الصلح. وتزوّج العزيز ابنة عمه العادل.

وخرج الملوك لتوديع الملك العزيز، في أول شعبان، واحداً بعد واحد. فخرج الظاهر أولاً والتقيا ونزلا بمرج الصفر وبات عنده ليلة ثم رجع.. وخرج العادل. ثم الأفضل. فلما اجتمع بأخيه فارقه وما ثوى. ورجع كل إلى بلده.

ولما استقر الأفضل بدمشق، قضى حقوق الجماعة وشكرهم. ورحل الظاهر صوب حلب رابع عشر شعبان وأقام العادل إلى تاسع شهر رمضان ورحل إلى بلده الرها وحران.

ثم ان الأفضل نظم أبياتاً يكتبها إلى أخيه العزيز في استعطافه واستمالته. وقال: كنت فارقت أخي منذ تسع سنين وما التقينا إلا في هذه السنة فقلت:

نظرتك نظرة من بعد تِسعٍ
تقضّت بالتفرّق من سنين
وغضّ الدهر عنها طرْف غدرٍ
مسافة قرب عين من جبين

وعـاد إلـى سـجـيـتـه فـأجـرى
بـفـرقـتـنـا الـعـيـون من الـعـيـون

فـويـح الـدهـر لم يسمـح بـوصـلٍ
يـعـود بـه الـهـجـوع إلى الـجـفـون

فـراقـاً ثـم يـعـقـبـه بـبـيـنٍ
يـعيـد إلى الحشـا عـدم الـسكـون

ولا يـبـدي جيـوش الـقـرب حتـى
يـرتـب جيش بُـعـدٍ في الـكـمـيـن

ولا يُـدنـي مـحـلي مـنـك إلاّ
إذا دارت رحـى الـحـرب الـزبـون

فليـت الـدهـر يسـمـح لي بـأخـرى
ولـو أمـضى بـهـا حـكـم الـمـنـون

قال: ثم كثر الشر ممّن حول الأفضل في حق الأمراء الكبار ذوي الأقدار. فأنفوا من ذلك وأزمعوا على الانفصال لسوء تلك الحال. فممّن سار إلى مصر عز الدين سامة وحرّض العزيز على القيام بنصرة الدولة الناصرية. وعرفه أن أخاه الأفضل مسلوب الاختيار مع من حوله من الأشرار. وممن سار إلى مصر القاضي محيي الدين محمد بن أبي عصرون. وتولى بعد أشهر قضاء القضاة بمصر وأعمالها وذلك سنة إحدى وتسعين. فاستمرت ولايته إلى أن عاد العزيز من الشام وتبعه العادل، فصرفه وأعاد القضاء إلى زين الـدين علي بن شـرف الـدين يـوسف الـدمشقي، وكـان نـائبـاً

لصدر الدين عبد الملك بن درباس. ثم استقل، ثم عُزِل بابن أبي عصرون، ثم أعيد إليه.

وكان الأفضل قد اشتغل بعد انصراف أخيه باللذات وتشاغل عن أمور الناس بإدمان الشراب مع من حوله من الأصحاب. ثم أقلع عن ذلك وتاب وجدّ في الذكر والزهد وأناب، وشرع في كتابة مصحف بخطه وحَسُنت طريقته وظهرت حقيقته وذلك في أوائل سنة إحدى وتسعين. وفي هذه السنة في ربيع الأخر وصل الخبر بأن العزيز قادم يحصر دمشق مرة ثانية. فاشتد غمّ الأفضل. فأشير عليه بأن يرحل إلى عمه العادل ويأتي به لدفع هذا القضاء النازل. فرحل رابع عشر جمادى الأولى والتقى بعمه بصفين، وطلب منه الرجوع إلى دمشق ففعل. ووصل العادل إليها تاسع جمادى الآخرة. وتخلّف عنه الأفضل وقصد حلب للاستظهار بأخيه الظاهر، فوثّق معه الأيمان على ما كان عليه من الصفا، وكذلك فعل بابن تقي الدين بحماة، ووصل إلى دمشق واجتمع مع عمه العادل.

وكان العادل أبداً يشير بصرف الوزير الجزري، وكان قد استولى على الأفضل، فلم يقبل، فكان العادل أبداً مغتماً لذلك، فبالغ الأفضل في إكرام عمه وإزالة غمه حتى ترك له سنجقه وصار يركب في خدمة عمه. وضاق أخوه الظافر من هذه الحال.

وكان الظاهر قد نفر عليه جماعة من الملوك والأمراء ممن هم في طاعته، من جملتهم صاحب حماة، وعز الدين بن المقدم صاحب بارين، فراسلا العادل في الاعتصام به. وكان من جماعتهم بدر الدين دلدرم بن بهاء بن ياروق صاحب تل باشر، فاعتقله

الظاهر وبني عمه وطلب منه تسليم حصنه، فشفع العادل فيهم وكفِل أنه يكفّهم ويكفيهم، واستصحبهم إلى دمشق. فطلب منه الظاهر الوفاء بضمانه، فتعذّر عليه ردهم وتيسّر له ودّهم. فغضب الظاهر لذلك وراسل العزيز يحثه على الإسراع في القدوم. فأقبل العزيز وخيَّم بالفوّار. وشرع العادل في تدبير أمور الأفضل. فكاتب الأمراء الأسدية من أصحاب العزيز يحثهم على تركه والانقطاع إلى حزب الأفضل وسِلْكه، وكانت الأسدية أبداً في عناء من تقدم الناصرية عليها. وراسل العادل أيضاً العزيز يخوّفه من قبل الأسدية ويعرّفه ما انطوت عليه قلوبهم من الغلّ. فكانوا إذا لقيهم عرفوا في وجهه التغيّر عليهم، فرغبوا عنه وحسّنوا للأكراد مرافقتهم في الانصراف عنه ففعلوا.

وكان أمير أمراء الأكراد أبو الهيجاء السمين، فدارت الأكراد حوله وقالوا لا نأمن عليك من الناصر فأبرموا أمرهم وعجّلوا رحيلهم. فرحل أبو الهيجاء والمهرانية والأسدية عشية الاثنين رابع شوال وكانوا أكثر العسكر. وأعلم العزيز بهم، فما بالى بانصرافهم وقال: صفوْنا من أكدارهم. ولم يأمر أصحابه باتّباعهم وردّهم وبقي في خواصه مقيماً تلك الليلة. ثم رحل عائداً إلى مصر. فجاء رسول أبي الهيجاء السمين إلى العادل يعلمه برحيل العزيز خائفاً ويأمره بالقدوم ليلحقوه ويأخذوه، ويتسلّموا ملك الديار المصرية. فتحالف العادل والأفضل على ملك مصر؛ أن يكون للعادل الثلث وللأفضل الثلثان. وخرجا يوم الأربعاء في الجيوش. واستناب الأفضل بدمشق أخاه الأصغر قطب الدين موسى.

وأما العزيز، فإنه سار وأخذ طريق اللجون والرملة. وفرق من الأسدية الذين بالقاهرة أن يفعلوا فعل إخوانهم فيمنعوه من دخول البلد. وكان مقدّمهم الأمير بهاء الدين قراقوش، وهو أكبر الأمراء الأسدية، قد استنابه العزيز بالديار المصرية، فهو مقيم على الصفاء والمودّة والإخاء. فلما وصل العزيز تلقّوه وإلى ذروة سلطنته رقّوه.

وأما العادل والأفضل، فاجتمعا بالمتخلّفين عن العزيز. وحرصت الأسدية أن يسبقوا العزيز فلم يقدروا. واجتهدوا أن يدركوه ويتقدّموا فتأخروا. فأمرهم العادل بالثبات. وتسلّم القدس وأعماله وما يجاوره من أعمال الساحل، أبو الهيجاء السمين، بأمر الأفضل والعادل. فرتّب فيها نوابه وأسكنها أصحابه. وصحبهم إلى الديار المصرية لمحالفة الأسدية ومخالفة الناصرية. فنزل بهم العادل على بلبيس. وكان أوان أخذ زيادة النيل في الانتهاء والسعر غال. وظهرت ندامة الأسدية وضعفت معونتهم، وضوعفت مؤونتهم، فخاف من مكرهم والعدول إلى مستقرهم. فأرسل إلى القاضي يستوفده من الاستزارة، ويسترشده بالاستشارة. فألزمه العزيز بإجابة سؤاله. فخرج إليه، واستبشر الناس بخروجه، رجاء الصلح. وركب العادل وتلقّاه على فراسخ واجتمعا وأصلحا الأمور على ما يحب الفريقان. وعفا العزيز عن الأسدية. وأقام العادل عند العزيز وأما الأفضل فإن العزيز خرج إليه وودّعه، فانصرف ومعه أبو الهيجاء السمين، وتولّى القدس. ووصل الأفضل إلى دمشق غرّة المحرّم سنة اثنتين وتسعين.

ثم ان الأفضل لازم صيامه وقيامه، وقلّل شرابه وطعامه،

واستوى ليله ونهاره، ووزيره الجزري قد بلي الناس منه ببلايا، وهو في غفلة عن تلك القضايا. وكان يدخل إليه ويوهمه من قبل أقوام أنهم عليه، وأنهم يميلون إلى أخيه، فيصدّقه الأفضل فيما يدّعيه فصار يبلغ العادل عنه أحوال ما تُعْجبه بل تغضبه وصار يتصل به كل من هاجر من الشام إلى مصر، وما منهم إلاّ من يشكو من الوزير الجزري.

وكان قايماز النجمي قد لصق بالعادل وكذلك عز الدين سامة. وصاهر العادل وظاهَرَه. وكان العادل بمصر مستوطناً للقصر، فوعد الجماعة بإزالة الوزير الجزري وردّه إلى بلاده. وقـرّر مع العـزيز تسيير عسكره معه إلى الشام ليمهد له قاعدة الملك في سائر بلاد الإسلام. فأخرج العساكر إلى بركة الجب. وخرج العزيز لتشييعه وذلك مستهل ربيع الأول ووصل الملك الزاهر مجير الدين داود من حلب إلى أخيه العزيز، من جانب الظاهر، لتسكين هذا الرهج الثائر، ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر، والقاضي بهاء الدين بن شداد.

ثم ان العادل أشار على العزيز بأن يوافقه على المسير، ويرافقه فيه. فرآه عين التدبير، فسارا بالعساكر نحو الشام.

ولما انصرفت رسل الظاهر من مصر بما طلبوا، مروا بدمشق، فأعلموا الملك الأفضل بما أبرم من الأمر فضاق صدره، وبذل فكره، واستشار أصحابه، فأشار عليه شيوخ الدولة بأن يستقبل أخاه وعمه ويسلّم لهما حكمه. وأشار الجزري وأصحابه بالتصميم على المخالفة، وترك المجاملة والملاطفة ثم دخل عليه أخوه

الملك الظافر خضر، فشجّعه وصبّره وتولى أسباب التحصير. وحلفوا الأمراء والمقدّمين، وقطعوا ما فوق المصلى عند مسجد فلوس بفصيل، ورتّبوا رجالاً حوالى البلد يتناوبون لحفظه في البكرة والأصيل. وتفرّق الأمراء على الأسوار والأبراج. وجاءت الرسل الظاهرية لإظهار المظاهرة. وندب الأفضل، ملك الدين، أخا العادل إليه منه رسولاً. فوصل إلى العسكر العزيزي بالداروم وغزة، ولقي عند العزيز من قوله العزة. فبقي ملك الدين هناك أياماً في إصلاح ذات البين. ولا شك أنهم اشترطوا على الأفضل شروطاً وردّوه بها. وأقاموا ينتظرون الجواب. فنفذ من ذكَرَ أن الأفضل أبى ذلك.

فلما رأى الأكابر وشيوخ الدولة أن الأفضل لا يسمع من رأيهم، وأنه عازم على المحاربة، ولا يعدل عن رأي وزيره مع ما قد عرفه من شؤم تدبيره، شرعوا في إصلاح أمورهم في الباطن. فراسلوا العزيز والعادل، واستظهر كل لنفسه. وأقام العسكر مذ عاشر رجب على البلد، مُستظهراً بالعدد والعُدَد، لا يحدث حدثاً، ولا يعبث بالبلد إلا عبثاً. فكتب الأولياء من البلد إلى العزيز والعادل بانتهاز الفرصة. فركبوا وتأهّبوا يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب. فما صدّهم عن قصد البلد أحد، وما كان في طريقهم إلاّ الملك الظافر ومعه عسكر حلب. فقاتل على ظن قتال الجماعة وما عنده علم بما دبّروه من المخامرة، فحادوا ولم يكترثوا.

ووصل العزيز إلى الميدان الأخضر. ووصل العادل إلى باب توما. وكان الأمير الأمين به قد استنهضه إليه بكتبه ففتحه له.

فدخل العادل وأصحابه من باب توما والباب الشرقي. وبات العادل في الدار الأسدية. ودخل العزيز من باب الفرج وبات في دار عمته الحسامية. وخرج إليه الأفضل ولَقِيَه، وتجرّع من هم ما سُقِيَه.

فلما ملك العزيز دمشق أقام أياماً بالميدان الأخضر الكبير، إلى أن انتقل الأفضل من القلعة بأهله وأصحابه، وأخرج وزيره الجزري مخفياً في صناديقه إشفاقاً عليه من قتله وتحريقه. وتحوّل الأفضل تلك الأيام إلى مسجد خاتون وما يجاوره ومعه وزيره. فهرب ليلاً إلى بلاده وقد ادّخر فيها أموال دمشق وأعمالها ثلاث سنين.

قال: وكان العزيز قرّر مع العادل أن يقيم العزيز بدمشق، ويستنيب العادل بمصر. فلما ملك دمشق ندِم على ما قرّره، ورجع عما دبّره. ونفذ إلى أخيه الأفضل في السر يعتذر إليه ويشير بما كان اشترط عليه. فأظهر الأفضل هذا السر لصحبه والمخصوصين لقربه. فقالوا: لا تنخدع بهذا القول فربما كانت خديعة، وأطلع عمك العادل على هذا السر فإنه يرى ذلك عين البر. فأرسل إلى العادل من أعلمه، فعزت عليه مراسلة العزيز الأفضل، واجتمع بالعزيز وعتبه، وقرّعه بما أنبىء به وأنّبه. وقال له: أبني وتهدِم، وأوجد مصالحك وتعدِم. فأنكر الحال وأحالها، وانتقض الأمر قبل إبرامه. ووجه إلى الأفضل من أزعجه، وإلى صرخد أخرجه. وسدّ طريق الاستنصار على أخيه الظافر حتى أسلم في تسليم بُصرى للظفر بسلامته وبذلها ولم يتبعها بندامته. ورحل إلى حلب وأظهر

الظاهر الاحتفال به. وأما الأفضل فإنه سار إلى قلعة صرخد وسكنها، وحوّل أهله وأخاه قطب الدين إليها وتوطّنها.

وعند خروج الأفضل من قلعة دمشق، دخل العزيز إليها، يوم الأربعاء رابع شعبان. وجلس يوم الجمعة في دار العدل. واعتقد الناس أنه يطول مقامه عندهم. فلم يشعروا به إلاّ وقد برّز للرحيل. وتقدم إلى العادل بأن يتولى البلاد. وفارق دمشق عشية الاثنين تاسع الشهر. ونزل بالمخيّم فوق مسجد القدم. ثم تحوّل إلى الكسوة وودّعه بها يوم السبت رابع عشر الشهر. فلما عاد العادل من وداع العزيز، قُرِىء بالجامع منشوره العزيزي بالبلاد والأعمال والنظر في جميع الأحوال وأشاع أنه نائب العزيز وهو سلطانه. وأبقى الخطبة باسم العزيز خالية من اسمه، حالية برسمه وضرب الديناروالدرهم على سكنه. وأظهر أنه قوي بشوكته وشكّته. وجلس يوم الاثنين والخميس للعدل وبسط يده لجمع الأموال وخزنها، لوقت عموم الحاجة إلى صرفها.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

ابن الأثير: علي بن محمد الجزري الملقب بعز الدين (ت٦٣٠هـ - ١٢٣٢م).

- الكامل في التاريخ. دار الكتاب العربي. بيروت ١٩٦٧.
- الباهر في الدولة الأتابكية تحقيق د. عبد القادر طليمان القاهرة١٩٦٣.

ابن تغري بردي: أبو المحاسن جمال الدين بن يوسف (ت٨٧٤هـ - ١٤٦٥م).

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (تراثنا. مصر).

ابن جبير: أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني (ت٦١٤هـ - ١٢١٧م).

- رحلة ابن جبير. دار صادر١٩٦٤ - بيروت.

ابن خلكان: شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم الشافعي (ت٦٨١هـ - ١٢٨١م).

- وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان. دار الثقافة - بيروت.

سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأ وغلي بن عبد الله (ت٦٥٤ - ١٢٥٧م) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ج٨ طبعة الهند١٩٥١.

أبو شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم شهاب الدين الشافعي (ت٦٦٥هـ - ١٢٦٨م).
- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية الجزء الأول قسم ١ - ٢ تحقيق د. محمد حلمي محمد أحمد.
- الروضتين في أخبار الدولتين ط دار الجيل - بيروت.
ابن شداد: بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم (ت٦٣٢هـ - ١٢٣٩م).
- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية تحقيق د. جمال الدين الشيال١٩٦٤ - مصر.
ابن شاهنشاه الأيوبي: محمد بن تقي الدين عمر (ت٦١٧هـ - ١٢٢١م).
- مضمار الحقائق وسر الخلائق ت حسن حبشي ١٩٦٨ مصر.
ابن العماد الحنبلي: أبي الفلاح عبد الحي (ت١٠٨٩).
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب المكتب التجاري - بيروت.
العماد الأصفهاني: محمد بن محمد بن هبة الله (ت٥٩٧هـ - ١٢٠١م).
- الفتح القسي في الفتح القدسي ت محمدمحمود صبح .الدار القومية للطباعة والنشر١٩٦٥ مصر.
- تاريخ دولة آل سلجوق دار الآفاق الجديدة بيروت.
أبو الفدا: إسماعيل بن عماد الدين (ت٧٣٢هـ - ١٣٣٠م) المختصر في أخبار البشر. دار المعرفة - بيروت.

القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٢١هـ ـ ١٤١٨م).
ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر ـ مصر١٩٦٣.
ابن القلانسي: حمزة بن أسد بن علي أبو يعلى التميمي (ت٥٥٥هـ ـ ١١٦٠م).
ـ ذيل تاريخ دمشق ـ بيروت١٩٠٨.
ابن كثير: الحافظ الدمشقي (ت٧٧٤هـ).
ـ البداية والنهاية مكتبة المعارف ـ بيروت١٩٦٦.
البنداري: قوام الدين الفتح بن علي (٦٢٣هـ ـ ١٢٢٦م).
ـ سنا البرق الشامي. دار الكتاب الجديد١٩٧١.
المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي أبو العباس (ت٨٤٥هـ ـ ١٤٤١م).
ـ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار مطبعة النيل١٣٢٥هـ مصر.
ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ت محمد مصطفى زيادة. دار الكتب المصرية١٩٣٤ مصر.
ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا تحقيق جمال الدين الشيال ـ القاهرة١٩٧١.
السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ ـ ١٤٤٥م).
ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. دار إحياء الكتب العربية١٩٦٨.

ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ - ١٢٩٨م).
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب تحقيق جمال الدين الشيال دار القلم ١٩٦٠.
ابن أيبك الصفدي: صلاح الدين خليل (ت٧٦٤هـ).
الوافي بالوفيات الجزء الأول باعتناء هلموت ريتر ١٩٨١.
ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله (ت٦٢٦هـ - ١٢٢٩م).
- معجم البلدان. دار صادر - بيروت ١٩٧٧.
- إرشاد الأريب لمعرفة الأديب (معجم الأدباء - القاهرة ١٩٣٦).

المراجع العربية والمعرّبة:

بدوي (أحمد): الحركة الأدبية في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام مكتبة النهضة في مصر ١٩٥٣.
باركر (أرنست): الحروب الصليبية ترجمة الباز العريني. دار النهضة العربية - بيروت.
سعداوي (نظير): - التاريخ العربي المصري - مكتبة النهضة - مصر ١٩٥٨.
- الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي. مكتبة النهضة - مصر ١٩٦٧.
سليمان (أحمد السعيد): تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة. دار المعارف - مصر ١٩٦٩.

الجميلي (رشيد): دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي. دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٠.
حمزة (عبد اللطيف): الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي. دار الفكر العربي ١٩٦٨.
حتي (فيليب): صانعو التاريخ العربي. دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٩
تاريخ العرب مطول مطبعة غندور ـ بيروت ١٩٦٥.
رنسمان (ستيفن): الحروب الصليبية ترجمة الباز العريني. دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٥.
ربيع (محمد حسنين): النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٤.
زيدان (جرجي): تاريخ آداب اللغة العربية. مكتبة الحياة ـ بيروت.
العريني (الباز): مصر في عصر الأيوبيين. سلسلة الألف كتاب ـ مصر.
عاشور (سعيد): الحركة الصليبية. مصر ١٩٦٣.
ـ بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى جامعة بيروت العربية ١٩٧٧.
عنان (محمد عبد الله): تراجم إسلامية. مطبعة الخانجي ـ مصر.
قاسم (عبده قاسم): ماهية الحروب الصليبية. عالم المعرفة ـ الكويت ١٩٩٠.
نقاش (زكي): العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية. دار الكتاب اللبناني ١٩٥٨.

ماجد (عبد المنعم): الناصر صلاح الدين الأيوبي. مكتبة الجامعة العربية - بيروت١٩٦٧.

مراجع بالأجنبية:

Dozy (R): Supplément aux dictionnaires Arabes ed. leiden 1881 2v.

- Encyclopedie de L'Islam: N.ed. 1975 Maissonneuve - Paris.

Grousset: Histoire des croisades et du rouyaume franc en Jerusalem Paris 1943.

Michaud: Histoire des croisades Paris.

Wiet: L'Egypte Arabe Paris 1937.

فهرست المواضيع